محمد سرور زين العابدين

مساجد الضرار

كيف نحصّن الصفّ الإسلاميّ من المنافقين

طبعة خاصة

مكتبة دار اليقين

دار الأرقم

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سورة آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سورة النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سورة الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد: فالنّفاق داء خطير مزمن، ومرض عضال لا تنقطع آثاره، وانحراف في السلوك والأخلاق، وقدرة فائقة علىٰ المكرّ والخديعة.

والمنافق: فاسدٌ مفسدٌ، وضالّ مُضِلّ، وكذّاب في قوله وعمله، ومراوغ محتال، وفاقد للإيمان، وخائن جبان. والمنافق الذي تجتمع فيه هذه الصفات من ألدّ أعداء الله، وقد توعّدهم جلّ وعلا بالدرك الأسفل من النار. ولو تداعىٰ المصلحون من أهل العلم والخبرة والرأي إلىٰ مؤتمر ليتدارسوا فيه أخطر مشكلة مُنِيت بها الأمة الإسلامية في مختلف مراحل التاريخ، لما وجدوا مشكلةً أخطر من النّفاق والمنافقين.

فقد يكون المنافق شيخًا مشهورًا، يعتلي منابر المساجد، فيهزّ مشاعر المستمعين بجميل قوله، وقوة اندفاعه، وقدرته علىٰ الإقناع. وقد يرتفع منصب هذا الشيخ، فيصبح

مفتيًا عامًّا للدولة، أو وزيرًا للأوقاف، فيصدر من الفتاوىٰ والمراسيم والتعليمات التي تُرضي من اختاره لهذا المنصب، وتُغضب الله تعالىٰ، وقد لا يكشف انحرافه إلا القليل من الناس.

أمثال هذا الشيخ كثيرون، ولا تكاد تخلو منهم مدينة ولا معهد شرعيّ أو كلية أو مؤسسة دينية.

وقد يكون المنافق حاكمًا وصل إلىٰ الحكم علىٰ ظهر دبّابة، وفي البيان الأول الذي أصدره أكدّ بأنه زاهد بالمنصب، وقد غامر بنفسه من أجل القضاء علىٰ الإفساد والمفسدين، ورفع نيْر الظلم والكبت والاستعباد، وتمكين المواطنين من التعبير عن آرائهم دون قهر ولا إرهاب. وسيجد الحاكم الجديد من يصدّقه، لا سيما إذا سارع إلىٰ إجراء بعض الإصلاحات البسيطة، ثم يكتشف الناس بأنه منافق مدوّج، فهو من جهة كان ينافق الحاكم الذي أطاح به، ويزيّن له كلّ قبيح، وفضلاً عن ذلك فقد كان الأداة التي يبطش ويفسد بها سلفه.. ومن جهة أخرىٰ فقد علم الناس نفاقه وكذبه فيما صدر عنه من بيانات، وتبيّن لهم أنه أكذب وأفسد وأظلم ممن سبقه.

وقد يكون لمنافق عضوًا قياديًّا في حزب إسلامي، وشيئًا يبدأ في الزحف نحو منصب الرجل الأول في الحزب، ثم لا يلبث أن يبلغه بدهائه وقوة شخصيته وقدرته علىٰ الاستقطاب. وعندما يصبح صاحب الكلمة الأولىٰ تراه يجمع حوله من يريد، ويستبعد لسببٍ أو لآخر من يريد، ثم يكتشف مؤسسو الحزب وأعضاؤه العاملون أن حزبهم يسير باتجاه مخالف لاتجاهه الأول، ويجدون أنفسهم عاجزين عن إنقاذ حزبهم من الاختطاف الذي تحقّق علىٰ يد الرجل الأول فيه، لأن الاكتشاف جاء متأخّرًا، وهم

أصبحوا غرباء في حزبهم، والأوراق كلّها بيد هذا القائد الذي أولوه ثقتهم.

وقد يكون المنافق قائدًا من قادة الجهاد، يبالغ زملاؤه وأتباعه في الحديث عن ذكائه وورعه وتقواه وعفته، واستعداده الدائم للتضحية، وبذل المال والنفس في سبيل الله.. ثم يتبيّن لهم أو لبعضهم بعد أشهر أو سنوات قليلة أنه اخترق جماعتهم، وكشف أسرارهم، وأجهض تجربتهم.

نحن نعرف عدوّنا الكافر، نعرف أفكاره ومبادئه وأفعاله وبلدانه، وهو لا يجد حرجًا في بيان مواقفه وفي الدفاع عنها. أما المنافقون فيتعذّر علينا معرفتهم، لأنهم يعيشون بين ظهرانينا، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، وقد يتفوّقون علىٰ كثير منا بواسع علمهم، وعذوبة لسانهم، وارتدائهم الدائم لثياب الصلاح والتقوىٰ. ولهذا فإن المنافقين اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ، لأن أولئك كانوا يُسِرّون نفاقهم، وهؤلاء يعلنون وهم آمنون.

فمنهم من يقول: نحن مسلمون، ولا نريد للدّين المقدّس الطاهر الذي أنزله العليم الخبير أن يُلّوَّث بأخطاء السياسيين وانحرافاتهم.

ومنهم من لا همَّ لهم إلا تتبّع ما يسمّونه عورات الدعاة والجماعات الإسلامية، زاعمين أنهم يتاجرون بالدين من أجل تحقيق مكاسب ماديّة وسياسية، والدين -علىٰ حدّ زعمهم- بريء من أفعالهم. ثم تسرع الصحف ووسائل إعلام الظالمين في ترويج هذا الهراء، وإذا كان الدعاة والجماعات الإسلامية مضرب المثال في السوء والتضليل والفساد فأين الأخيار في هذه الأمة؟!

وإذا كانت السياسة وشؤون الحكم ليسا من الدين، فما شكل هذا الدين الذي يؤمن

به ويعتقده هؤلاء؟!

لقد ازدهرت تجارة النّفاق في عصرنا هذا، وراجت بضاعته، وكثر مروّجوه وأتباعه عندما رأوهم يذرفون دموع التماسيح علىٰ الإسلام وأهله. وإذا كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ بنوا مسجدًا واحدًا، فالمنافقون اليوم بنوا مساجد كثيرةً، وإذا كان المسجد الأول قد أنزل الله فيه قرآنًا قطع دابره، فمساجد ضرار اليوم تؤدي دورًا هدّامًا والناس عنها غافلون، وبخطبائها ودعاتها معجبون.

ومن أجل تسليط الأضواء علىٰ أوكار المنافقين ومخططاتهم قمت بتأليف هذا الكتاب، وسمّيته "مساجد الضرار"، وقسّمته إلىٰ الفصول الآتية:

الفصل الأول: لمحات عن النّفاق:

وهو دراسة شرعيّة عامّة ومختصرة عن معنىٰ النّفاق، ومتىٰ بدأ وكيف؟ وأنواع النّفاق، والحدّ الفاصل بين النّفاقين: الاعتقادي والعملي. وكان هذا الفصل قد صدر علىٰ شكل كتيب عام ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م بعنوان "مساجد الضرار بين القديم والحديث" طُبع منه عدة طبعات، ثم توقّفت طباعته منذ أكثر من عشر سنين إلىٰ أن هيّأ الله لي إعادة النظر فيه.

الفصل الثاني: صفات المنافقين:

اجتزأتُه من كتاب ابن القيم "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين"، وقد أغناني -رحمه الله- عن كتابة أضعاف ما كتبته، ولن يكون بمثل شموليته وبلاغته.

الفصل الثالث: كيف نحصن الصف الإسلاميّ من المنافقين:

كتبت مسودته الأولىٰ منذ ثلاثين عامًا، ونشرته مجلة السُّنة عام ١٤١٤هـ. وهو (أي هذا الفصل) بيت القصيد في هذا الكتاب، فمنذ انتمائي لجماعة إسلامية، وأنا أتساءل: فلان هذا الذي كنا نتتبّع خطبه ومحاضراته، ونقرأ كلّ ما يكتبه بإعجاب، فلان هذا الذين كان يهزّ مشاعرنا، وهو يتحدّث عن الظلم والظالمين، كيف أصبح من أعوانهم، وتنكَّر لمواقفه وقناعاته السابقة؟!

وفلان الآخر كان أكبر سنًّا، وأكثر خبرةً، وأوسع علمًا ومعرفةً، فلان هذا كنا نراه في حالة الرخاء عملاقًا وملاذًا لأمثالنا، فلان هذا تغيّر في حال الشدة، وسيّطر عليه الهلع والهوان والجبن، وصار أسيرًا لأوهامه، فسبحان الذي سنَّ الابتلاء. قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [سورة البقرة:٢١٤].

بالابتلاء يتميّز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، والشجاع من الجبان.

وفلان الثالث والرابع والخامس و... ويكاد لا يعرف أحدهم من الدعوة إلا تجميل صورته والتقرّب من المسئولين، والكيد لأقرانه، والدسّ والافتراء عليهم وعلىٰ من يراهم خصومًا له أو لجماعته.. ولا أعدو الحقيقة عندما أقول: إن الطريق مُعبَّد أمام هؤلاء لتَسَنُّم أعلىٰ المناصب في الأحزاب الإسلامية والحكومية.

صديقي القارئ: لا تسألني بعد قراءتك لهذه الصفحات: من يكون فلان، وهل فلان

هو الذي تم تعينه في هذا الموضع؟

أنا -أيها الصديق- لا أقصد فلانًا أو فلانًا الآخر، وإنما أتحدّث عن ظاهرة عشتها منذ خمسين عامًا وزيادةً، رأيت خلالها كثيرًا من هذه النماذج، وبينهم من كان معنا، ثم تخلّىٰ عنا وتنكّر لنا، ثم رأيته يصعد ويصعد ويزداد في ابتعاده عنا وفي نهش لحومنا، حتىٰ إذا ظنّ بأن صعوده لا حدود له، هوىٰ المسكين من ارتفاع شاهق، وهو لا يدري لماذا هوىٰ. فقلت: لعله يرعوي ويعود إلىٰ سربه.. ثم رأيته بعد ذلك يجمع قواه، يهمّ بالصعود مرّةً أخرىٰ، وكأنه طيار يحب أن يموت وهو محلّق في الأجواء، فسبحان القائل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج:٤٦].

إن كتابي هذا أشبه ما يكون بالمذكرات، إلا أنني استبعدت منه الجانب الشخصي، وعملت بالمثل القائل: (ليس كلّ ما يُعلم يُقال، وما كلّ ما يُقال يقال في كلّ وقت)، ومن هذه المذكرات التي عشتها بآلامها وامتداد آثارها سأكتفي بذكر انشقاق ١٩٥٤م:

جاءنا ذات مرّة من أيام عام ١٩٥٤م موجّه أسرتنا الذي كنا نحبّه ونقدّره، ثم أخذ يحدّثنا -ومن غير مقدّمات- عن أخطاء واستبداد الأستاذ مصطفىٰ السباعي رحمه الله. وما زلت أذكر أننا صُدمنا من حديث الموجّه لا سيما أننا كنا في أوائل الشباب، ولا نعرف شيئًا عن الانشقاق والمنشقّين، وكان اسم مصطفىٰ السباعي عندنا أكبر من أن يؤثّر فيه حديث صاحبنا الذي جاءنا من حمص قبل عام واحد. ردَّ بعضنا علىٰ قول الموجّه بطريقة تتناسب مع سلامة فطرتنا، ثم سارعنا إلىٰ أخبار المسئولين فأبعده عنه، واختاروا لنا مسئولاً آخر.

كان عدد المنشقّين في محافظتنا (حوران) قليلاً جدًّا، وكانوا رغم قلتهم لا يعرفون ما وراء الأكمة، ولكنني علمت في دمشق ما كنت أجهله في حوران، كنت أمرّ أمام مركز باب الجابية، لكنني لم أدخله مرّةً واحدةً مطلقًا، وكانت الصحف والأحزاب تستغل هذه الفتنة، ثم تنفخ فيها وتضخّمها لتسيء -من وراء ذلك- للعمل الإسلاميّ كلّه.

لقد كانت الأجواء متوترةً، ويكفي أن يقال: (هذا من المنشقّين)، حتىٰ يتجنّبنا ونتجنّبه. وكأن كلاًّ منا من كوكب آخر.

في دمشق صرت أسمع باسم نجيب جويفل، وما يُقال عنه بالحق أو بالباطل. قال لي زملائي الذين يعرفونه: إنه شديد الحذر، ويندر أن يستقبل الناس في بيته ويتظاهر -ولو بشكل غير مباشر- ببساطة حياته وقلة موارده.. شأنه في ذلك كشأن الإخوان الذين جاءونا من مصر، فرارًا من مطاردة نظام عبد الناصر، وكان منهم: عبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان، وسعد الدين الوليلي وآخرون. وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر كان جويفل هو الوحيد الذي لم يُعتقل أو يُستجوب، وبقية القصة ذكرتها في موضعها من هذا الكتاب عند الحديث عن اختراق عام ١٩٥٤م.

بقية الفصول: الرابع والخامس والسادس كانت جوابًا لسؤال: هل هناك صفوف عجز المنافقون عن اختراقها؟! ولما كان أُسوتنا رسول الله ﷺ، فقد اخترت الصفّ الذي تعهده رسول الله ﷺ بالتعليم والتربية، وبيّنت الحكمة من تقسيم الصحابة رضوان الله عليهم إلىٰ طبقات.

وأكدّت بأن كلّ جماعة تسير علىٰ نهج رسول الله ﷺ لن تُختَرق، ولو بلغ عدد أفرادها الملايين، وعلىٰ العكس، فكل جماعة تخالف النهج النبوي، فتتسرّع في اختيار المنتسبين

إليها، وتفتقد مقومات التربية والإعداد ستُخترق ولو بلغ عددها العشرات.

وفي نهاية هذه المقدمة أودّ الإشارة إلىٰ الأمور الآتية:

الأول: لم أتمكّن في هذه الطبعة من تقديم دراسة عن مسجد الضرار أخّرت صدور الكتاب أكثر من عشر سنين، وأرجو أن ييسّر الله لي استدراك هذا النقص في طبعة قادمة.

الثاني: لما كانت معظم الاختراقات تتم عن طريق الجواسيس الذين تقف وراءهم أجهزة ضخمة معادية، فلعلي أستطيع في طبعة قادمة التوسّع في هذا الجانب بعض الشيء مع ذكر الأمثلة.

الثالث: أما الباطنية وهي أخطر أنواع النّفاق، فقد تحدّثت عنها في مقالات وكتب أخرىٰ، ولم أجد هاهنا جديدًا أضيفه.

واللهَ أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجنّبني وعموم إخواني المسلمين الشقاق والنّفاق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

محمد سرور زين العابدين

لندن: ١٠/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الموافق ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٤م.

الفصل الأول: لمحـات عن النّفاق

تعريف النّفاق

النّفاق لغة:

وَالنَّفَقُ: سَرَبٌ فِي الأَرْضِ مُشْتَقٌّ إِلىٰ آخَرَ، وَفِي التَّهْذيبِ: لَهُ مَخْلَصٌ إِلىٰ مَكَانٍ آخرَ.

وَالنُّفَقَةُ وَالنَّافقاء: جُحْرُ الضَّبِّ وَاليَرْبُوع، وَقيلَ: النُّفَقَةُ وَالنَّافقَاءُ مَوْضِعٌ يُرَقِّقُهُ اليَرْبُوعُ مِنْ جُحْرِهِ، فَإِذَا أُتِيَ منْ قِبَلِ القَاصِعَاءِ ضَرَبَ النَّافِقَاءَ بِرَأْسِهِ فَخَرجَ. وَنَفِقَ الْيَرْبُوعُ وَانْتَفَقَ وَنَفَّقَ: خَرَجَ مِنْهُ[1].

وقال ابن الأعرابي: قُصَعَةُ الْيَرْبُوع أَنْ يَحْفِرَ حَفيرةً ثُمَّ يَسُدَّ بَابَهَا بتُرَابها، وَيُسَمَّىٰ ذَلكَ التُّرابُ الدَّامَّاءُ ثُمَّ يَحْفِرُ حَفْرًا آخراَ، يُقَالُ لَهُ النَّافِقاءُ وَالنُّفَقَةُ وَالنَّفَقُ فَلاَ يُنَفِّذُها، وَلكِنَّهُ يَحْفرُهَا حَتَّىٰ تَرِقَّ فإِذَا أُخِذَ عَلَيْهِ بِقَاصِعَائِهِ عَدَا إِلىٰ النَّافِقَاءِ فَضَرَبَها بِرَأْسِهِ وَمَرَقَ مِنْها، وَتُرابُ النُّفَقَةِ يُقَالُ لَهُ: الرَّاهِطَاءُ.

قالَ الأَصْمَعيُّ فِي القَاصِعَاءِ: إِنَّما قيلَ لَهُ ذلكَ لأَنَّ اليَربُوعَ يُخْرجُ تُرابَ الجُحِر ثُمَّ يَسُدُّ بِهِ فَمَ الآخرِ، مِنْ قَولِهم: قَصَعَ الكَلْمُ بالدَّم: إذا امْتلأ بِهِ، وقيل لهُ الدَّامَّاءُ، لأَنّهُ يُخْرِجُ تُرابَ الجُحْر وَيطْليَ به فَمَ الآحر، مِنْ قولك ادْمُمْ قدْرَكَ أي اطْلها بالطِّحال والرَّماد. ويقالُ: نَافقَ اليَرْبُوعُ: إذا دَخَلَ في نافِقَائِهِ. وَقَصَّعَ: إذا خَرَجَ من القاصِعَاءِ. وتَنَفَّقَ: خَرَجَ.

وقال أبو عبيد: سُمِّيَ المُنافقُ مُنافقًا للنَّفقِ وَهُوَ السَّرَبُ في الأرض، وقيل: إنّما سُمِّيَ

(١) لسان العرب ١٠/ ٢٥٨.

مُنافقًا لأنّهُ نافقَ كاليربوع وهو دُخُولهُ نافِقَاءَهُ. يُقال: قَدْ نَفَقَ بهِ ونَافَقَ، ولَهُ جُحْرٌ آخرُ يُقالُ لَهُ القاصِعاءُ، فإذا طُلبَ قَصَّعَ فَخَرجَ مِنَ القَاصِعاء، فَهُوَ يَدخُلُ في النَّافِقَاءُ وَيَخْرُجُ مِنَ القَاصِعاءِ، أو يَدخلُ في القاصِعاءِ وَيُخرجَ من النَّافِقَاءِ، فَيُقالُ هكذا يَفْعَلُ المُنافق، يَدخلُ في الإسلام ثُمَّ يَخرجُ مِنهُ مِنْ غَيْرِ الوجهِ الذي دخلَ فيهِ.

وتحدّث أبو زيد عن الأصل اللغوي لكلمة نفق ومما قاله:

نفق اليربوع تنفيقًا ونافقَ أي دَخلَ في نافقائِهِ ومنهُ اشتقاق المنافق في الدين. والنّفاق بالكسر فعل المنافق. والنّفاق: الدخولُ في الإسلام مِنْ وجهٍ والخُرُوجُ عَنْهُ مِنْ آخرَ، مُشتقٌّ مِنْ نافقاء اليربوع، وَقَد نَافَقَ مُنَافَقَةً وَنفاقًا، وَقَد تَكَرَّرَ في الحَديث ذكْرُ النّفاق وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُ اسْمًا وَفعْلاً، وَهُوَ اسْمٌ إسلاميٌ لمْ تَعْرِفَهُ العَرَبُ بالمَعْنَىٰ المَخْصُوص بهِ، وَهُوَ الَّذي يَسْتُرُ كُفْرَهُ وَيُظهرَ إيمَانَهُ، وإنْ كَانَ أَصْلُهُ في اللُّغة مَعْرُوفًا. يُقال: نافَقَ يُنَافِقُ مُنَافَقَةً ونفاقًا وهُوَ مأخُوذٌ مِنَ النَّافِقَاءِ لاَ مِنَ النَّفَقِ، وَهُوَ السَّرَبُ الَّذي يَسْتَتِرُ فِيهِ لِسَتْرِهِ كُفْرَهُ [1].

وصدق علماء اللغة عندما شبّهوا أساليب المنافقين بجُحر الضب، فجُحر الضبّ طريق في باطن الأرض خفيّ مظلم كثير الالتواءات، وأساليب المنافقين خفية مظلمة ليس فيها وضوح ولا صراحة.

والمنافق كاليربوع ألفَ المراوغة والخداع. فاليربوع يدخل جُحره من باب واضح، ثم يهرب إذا شعر بالخطر من باب خفيّ آخر تتعذّر رؤيته، وكذلك المنافق يدخل الإسلام من باب ظاهر فينطق بالشهادتين، ويصلي مع الناس.. ثم يخرج من الإسلام من باب آخر من الصعب مشاهدته، ولو شاهده الناس عند نقضه وخروجه عن الإسلام لأقيم عليه حدّ

(١) لسان العرب لابن منظور فعل نفق: (١٢/ ٢٣٥).

الردّة. وحذّر رسول الله ﷺ المسلمين من تقليد اليهود والنصارىٰ، وأشار إلىٰ زمن يقلّد فيه المسلمون اليهود والنصارىٰ في كلّ شيء حتىٰ لو دخلوا جُحر ضبّ لتبعهم المسلمون، مع أن جُحر الضبّ لا يدخله عاقل:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لتتبِعنّ سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع حتىٰ لو دخلوا في جُحر ضبّ لاتبعتوهم"، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارىٰ؟ قال: (فمن) [١].

النّفاق شرعًا:

قال ابن جريج: المنافق يخالف قولُه فعله وسرُّه علانيته، ومدخلُه مخرجه، ومشهدُه مغيبة. وقال ابن كثير: النّفاق هو إظهار الخير وإسرار الشرّ، وهو أنواع:

اعتقاديّ وهو الذي يُخلّد صاحبه في النار. وعمليّ وهو من أكبر الذنوب [٢].

وقسَّم ابن القيم الكفر إلىٰ خمسة أقسام:

١. **كفر تكذيب.**
٢. **وكفر استكبار وإباء مع التصديق.**
٣. **وكفر إعراض.**
٤. **كفر شك.**
٥. **كفر نفاق [٣].**

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه -كتاب الفتن- انظر مختصر صحيح مسلم، ص٥٣١.

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٨.

(٣) مدارج السالكين: ١/ ٣٣٧.

وقال ابن تيمية: "النّفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرًا ما يُقال: كفر ينقل عن الملّة، وكفر لا ينقل، نفاق أكبر، ونفاق أصغر" (١).

وقال الكرماني: "إن النّفاق علامة عدم الإيمان، أو ليعلم منه أن بعض النّفاق كفرٌ دون بعض. والنّفاق لغة: مخالفةُ الباطن للظاهر. فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه" (٢).

ومن أقوال علماء التوحيد واللغة نعلم حقيقة الأخطار الناجمة عن النّفاق، وحجم الأراجيف التي يروّجها المنافقون في المجتمع الإسلاميّ.

وإذا عدنا إلىٰ سورة البقرة نجد أن الله سبحانه وتعالىٰ افتتحها بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وضِعْف هذه الآيات في صفات المنافقين.

وهذا يعني أن فضح المنافقين وكشف أستارهم ليس بالأمر السهل، وإنما تحتاج معرفتهم إلىٰ طول زمن، وخبرة بعيدة المدىٰ، وعمق في فهم الأمور، وحسن الإحاطة بها.

والحديث عن النّفاق والمنافقين لم يقتصر علىٰ سورة البقرة، وإنما جاء في السور المدنية الآتية:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، النور، العنكبوت، الأحزاب، محمد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، المنافقون، التحريم. واستغرق ما يقرب من ٣٤٠ آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها ٦٢٣٦ آيةً (٣).

---

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٥٢٥.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج١ ص٩٦.

(٣) المنافقون كما يصوّرهم القرآن الكريم، للمؤلف محمد جميل أحمد غازي، ص٦.

وهذا الحشد من الآيات القرآنية يبين لنا خطورة النّفاق والمنافقين في الصف الإسلاميّ، فالمشركون حدّدوا موقفهم من رسول الله ﷺ ودعوته منذ اليوم الأول من تاريخ هذه الدعوة، وأعلنوا صراحةً عما في نفوسهم من إنكار للنبوة وإشراك بالله، وجحود للوحي. والمؤمنون أشهدوا الدنيا علىٰ إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله.. ونالهم الأذىٰ والاضطهاد، فما ازدادوا إلا إيمانًا بالله واستسلامًا لقضائه وقدره.

أما الذين يتظاهرون بالإيمان، ويبطنون الكفر، ويتحالفون في السرّ مع أعداء الإسلام ويتربّصون بهم الدوائر، فلا بدَّ لنا من تدبّر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تكشف أفعالهم وأقوالهم وصفاتهم، كما أنه لا بدَّ لنا علىٰ ضوء هذه الأدلة الشرعيّة من معرفة ما حولنا، حتىٰ لا ننخدع بالنّفاق وأهله.

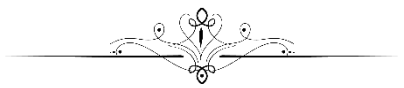

متى بدأ النّفاق؟

كان الناس في مكة صنفين:

مؤمنون بالله ورسوله، ومشركون بالله جاحدون بنبوة محمد ﷺ. وأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين لم يكن بينهم منافق واحد، وبدأ النّفاق أول ما بدأ بين قبائل الأنصار بعد الهجرة، بل وبعد معركة بدر.

تحدّث ابن كثير عن بداية النّفاق فقال: (وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية، لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يُظهر الكفر مستكرهًا، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، علىٰ طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب علىٰ طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس.

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من قبيلتيْ الأوس والخزرج، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف، بل قد عليه الصلاة والسلام وادعَ اليهود وقبائل كثيرةً من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت واقعة بدر العظمىٰ، وأظهر الله كلمته، وأعزّ الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول -وكان رأسًا في المدينة وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا علىٰ أن يُمَلِّكُوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعد بدر- قال: هذا أمر قد توجَّه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هم علىٰ طريقته

ونحْلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النّفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب. فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا، بل يهاجر فيترك ماله، وولده، وأرضه، رغبةً فيما عند الله في الدار الآخرة) [١].

وقد أخرج مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ ركب حمارًا، عليه إكاف، تحته قطيفة فدكية [٢]، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر، حتىٰ مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أبيّ، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابّة، خمَّر عبد الله بن أبيّ أنفه [٣] بردائه، ثم قال: لا تغبّروا علينا، فسلّم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل، فدعاهم إلىٰ الله وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ: أيها المرء! لا أحسن من هذا. إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلىٰ رَحْلك. فمن جاءك منا فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: أغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك قال: فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتىٰ همُّوا أن يتواثبوا، فلم يزل بهم النبي ﷺ يخفّضهم[٤]، ثم ركب دابته حتىٰ دخل علىٰ سعد بن عبادة. قال: (أي سعد! ألم تسمع إلىٰ ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبيّ-؟ قال: كذا وكذا). قال: اعفُ عنه يا رسول الله واصفح، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة [٥] أن

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧ عند تفسير قوله تعالىٰ: (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين).

(٢) فدكية: نسبة إلىٰ فدك، بلدة معروفة علىٰ مرحلتين إلىٰ ثلاث من المدينة.

(٣) أي غطاه.

(٤) أي يسكّنهم ويسهّل الأمر عليهم.

(٥) القرية أو المدينة.

يتوّجوه فيعصّبوه بالعصابة، فلما ردّ الله بالحق الذي أعطاكه شرِق[١] بذلك. فذلك فعل به ما رأيت. فعفا عنه النبي ﷺ) [٢].

قال النووي: اتفقوا علىٰ أن يجعلوه ملكهم، وكان من عادتهم إذا ملّكوا إنسانًا أن يتوّجوه ويعصّبوه.

هذا الحديث رواه عروة عن أسامة بن زيد، وفي حديث آخر رواه مسلم عن ابن شهاب وفيه الزيادة التالية: وذلك قبل أن يُسلم عبد الله.

قال النووي في شرح هذه الزيادة: أي قبل أن يظهر الإسلام، وإلا قد كان كافرًا منافقًا ظاهر النّفاق [٣].

إذن: فحديث مسلم يوثّق الرواية التي ساقها ابن كثير في تفسيره، ويؤكّدها، وفي هذا وذاك عبر كثيرة، أبرزها ما يأتي:

١- ظل عبد الله بن أبيّ علىٰ شركه حتىٰ كانت وقعة بدر العظمىٰ التي أعزّ الله بها دينه، فأظهر الإسلام وأبطن الكفر، وهذه كانت بداية النّفاق في تاريخنا الإسلاميّ.

ويبدو أن ابن أبيّ لم يفقد معظم آماله إلا بعد معركة بدر، أما قبلها فكان يرىٰ أنه يستطيع طرد الرسول ﷺ من المدينة، وما كان يتصوّر أن الأمور ستتغيّر في حماه تغيّرًا جذريًّا، وأن رابطة العقيدة والدين ستصبح في نفوس المؤمنين أقوىٰ وأمتن من رابطة

---

(١) أي غصّ وحسد النبي ﷺ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجهاد باب في دعاء النبي وصبره علىٰ أذىٰ المنافقين ٢/ ١٣٢٢. وقد ورد بألفاظ قريبة من هذا في البخاري باب (ولتسمعنّ من الذين أوتوا الكتاب) ٥/ ١٧٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي -كتاب الجهاد والسير- ١٢/ ١٥٧. نشر دار الفكر، لبنان.

التراب والطين، وأن ابنه عبد الله سيكون من أعدائه ومن أقرب الناس إلىٰ عدوّه محمد ﷺ.

٢-قال ابن كثير: (ودخل معه -أي مع عبد الله بن أبيّ- طوائف ممن هم علىٰ طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب).

عندما أظهر شيخ المنافقين الإسلام لم يتصرّف تصرّفًا فرديًّا، وإنما كان بعمله هذا يرسم وأصحابه خطوط التآمر والدسّ والخيانة، وكان من أطراف هذه المؤامرة طوائف من أهل الكتاب -أي اليهود والنصارىٰ من خارج المدينة-، ودخلت هذه الطوائف في الإسلام حسب الطريقة نفسها التي سار عليها زعيمهم (ابن أُبي).

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأنفال:٧٣].

٣-كان أهل المدينة قد اتفقوا علىٰ تتويج عبد الله بن أبي ملكًا عليهم، وجاء هذا الاتفاق بعد حروب طاحنة بين مختلف قبائل يثرب.. ثم جاء رسول الله ﷺ فأصبح قائد المدينة وما حولها.

فابن أُبيّ وأنصاره من المنافقين الذين لم يعرف الإسلام إلىٰ قلوبهم سبيلاً كانوا يرون أن محمدًا ﷺ قد انتزع الحكم منهم، واختار أعوانًا له من الغرباء والضعفاء، وفي ظل هذا الحكم الجديد تجرّأ العبيد علىٰ مالكيهم، فالمنافقون هم من الملأ الذين سلب منهم الإسلامُ مصالحهم وزعامتهم، وأطاح بالأنظمة والأعراف التي كانوا يفرضونها علىٰ الناس.

ومما ينبغي التأكيد عليه أن أغلب أنبياء الله ورسله في جميع حق التاريخ كانوا من

الملأ، وذلك لأن الدعوة إلىٰ وحدانية الله وعدم الإشراك به تصطدم أشدّ الاصطدام مع أهوائهم وشهواتهم ومنافعهم. والمنافقون قبل ذلك كله عشّاق زعامة، وعبيد مصالح، لا يقصّرون في امتطاء كلّ مركب يضمن لهم السيادة والقيادة، ومن أجل هذا يؤمنون أول النهار ويكفرون آخره، ويخاطبون كلّ إنسان بالأسلوب الذي يحبه ويرضاه ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البقرة:١٤].

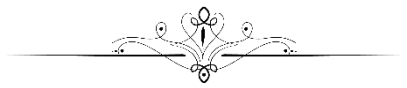

أنـواع النّفـاق

النّفاق الاعتقادي:

إن كان النّفاق في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر الذي يخلّد صاحبه في النار، وقد يكون المنافق مؤمنًا بالله لكنه لا يرىٰ وجوب تصديق الرسول فيما أخبر به، ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر علمًا وعملاً، ومع ذلك لا يجهر برأيه، ولو فعل لأقيم عليه حدّ الردّة لا سيما بعد نزول سورة براءة.

وعلىٰ هذا النوع من النّفاق كان عبد الله بن أبيّ وطغمته، وكان رسول الله ﷺ يتجاوز عنه لأسباب يأتي ذكرها بعد حين:

وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المنافقين مع الكافرين في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة النساء:١٤٠].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أي: كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبدًا، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين لا الزُلال" (١).

ونفىٰ سبحانه وتعالىٰ عن هؤلاء المنافقين صفة الإيمان بالله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [سورة البقرة:٨].

ومصير المنافقين الدرْك الأسفل من النار يوم القيامة، جزاءً علىٰ كفرهم الغليظ، قال

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٦٧ دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي.

تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [سورة النساء:١٤٥]. فالنار دركات، كما أن الجنة درجات، والمنافقون في أسفل هذه الدركات، لأن كفرهم أشدّ من كفر المشركين.

وأمر الله نبيه أن لا يصلي علىٰ أحد منهم مات، ولا يستغفر له، لأنه مرتدّ كافر، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة التوبة:٨٤].

قال ابن كثير: "أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي علىٰ أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم علىٰ قبره، ليستغفر له أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه. وهذا حكم عامّ في كلّ من عُرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين" (١).

وروىٰ البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلىٰ رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه. فقام رسول الله ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله: إنما خيّرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة:٨٠]، وسأزيده علىٰ السبعين. قال: إنه منافق. قال: فصلّىٰ رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ١٣٢.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة التوبة:٨٤] (١).

قال الحافظ ابن حجر: "فلما وقعت القصة المذكورة كشف الله عنهم -أي عن المنافقين- الغطاء، وفضحهم علىٰ رؤوس الملأ، ونادىٰ عليهم بأنهم كفروا بالله ورسوله، ولعل هذا هو السرّ في اقتصار البخاري في الترجمة من هذه الآية علىٰ هذا القدر إلىٰ قوله: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ ولم يقع في شيء من نُسَخ كتابه تكميل الآية.

وروىٰ الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب ﷺ قال: فما صلّىٰ رسول الله ﷺ بعده علىٰ منافق، ولا قام علىٰ قبره حتىٰ قبضه الله عز وجل. وروىٰ الترمذي هذا الحديث عن الزهري، وقال عنه: حسن صحيح" (٢).

وفي زماننا هذا خلق كثير ينهجون في سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم وعقائدهم نهج عبد الله بن أبيّ، ومن أبرز هذه النماذج نختار ما يأتي:

١- **الباطنيون**: وهم الذين يُبْطنُون شيئًا، ويُظهرون شيئًا آخر، ومنهم: غُلاة الصوفية الذين يؤمنون بالحلول ووحدة الوجود.

ومنهم الذين يقولون بأن هناك قرآنًا آخر، ويشتمون أصحاب رسول الله ﷺ، وبشكل أخص أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويزعمون بأن أئمتهم أفضل من أنبياء الله، وأنهم يعلمون الغيب. وهؤلاء فرِق كثيرة. بعضها تعتقد بألوهية عليّ بن أبي طالب رضي الله

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٧ كتاب التفسير باب "ولا تصلّ علىٰ أحد منهم".

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٧٨، وفتح الباري: ٩/ ٤٠٤ تفسير براءة. وعبد الله بن عبد الله بن أبي من فضلاء الصحابة، شهد بدراً وما بعدها، واستشهد يوم اليمامة في خلافة أبي بكر الصديق، وكان اسمه حباباً فسماه رسول الله (عبد الله). [انظر: فتح الباري ٩/ ٤٠٣].

عنه، وتنادي بتناسخ الأرواح، وتعطيل الأحكام، واستباحة المحرمات.

وكفر هذه الفرق ظاهر، لكن المشكلة أنه يأتيك منهم من يقول: أنا مسلم، وأنكر كلّ غلوّ أو تطرّف، ويتبرّأ من معتقدات طائفته، وفي الوقت الذي يقول فيه هذا الكلام، تجد أن أعماله تخالف أقواله، وأن ظاهره يخالف باطنه.

٢- **أتباع الأحزاب والمنظمات الجاهلية التي تنادي بتحكيم غير شريعة الله:** كالشيوعية، والعلمانية، وأضرابها.

وإذا كنا لا نشك بكفر هذه الأحزاب وكفر قادتها ومؤسسيها. إلا أننا نجد بعض أعضائها يصلّون ويصومون، ويزعمون بأنهم لا ينادون بتحكيم غير شريعة الله، أو يقولون بأن انتسابهم لهذه الأحزاب جاء نتيجة الخوف والضغط من قادة هذا الحزب أو ذاك، لأن مقاليد الحكم بيده، ولأنه تعوّد البطش بخصومه والتنكيل بهم.

النّفاق العملي:

وهو من أكبر الذنوب والمعاصي، وقد يجتمع في قلب المسلم إيمان ونفاق، ومن كان عمليًّا لا يُخلّد في النار، فإن شاء الله غفر له وأدخله الجنة، وإن شاء عذّبه عذابًا يتناسب مع حجم ذنوبه.

ومن أمثلة النّفاق العملي (الرياء)، وهو مشتق من الرؤية، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس، بإيرائهم خصال الخير. وحقيقته لغةً: أن يُرىٰ غيره خلافَ ما هو عليه. وشرعًا: أن يفعل الطاعة، ويترك المعصية مع ملاحظة غير الله، أو يخبر بها، أو يحب أن يطّلع عليها لمقصد دنيوي من مال أو نحوه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن ناسًا قالوا له: (إنا ندخل علىٰ سلطاننا، فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم)، قال ابن عمر ﷺ: (كنا نعدّ هذا نفاقًا علىٰ عهد رسول الله ﷺ) (١).

وروىٰ الإمام أحمد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: ((**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال الرياء، يقول الله عز وجل لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازىٰ الناس: اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!**)) (٢).

فالله سبحانه وتعالىٰ قد أوجب علىٰ كلّ مسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسر رسول الله ﷺ الدين بالنصيحة، وجعل أفضل الجهاد كلمة حق عند السلطان، ومن قعد عن الصدع بكلمة الحق في وجهه رغبةً أو رهبةً، وداهن له، فقد وقع في النّفاق.

وعن عمار بن ياسر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار**)) (٣).

وعن جندب بن عبد الله بن سفيان ﷺ قال: قال النبي ﷺ: ((**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائي يُرائي اللهُ بِهِ**)) (٤).

---

(١) رواه البخاري: انظر رياض الصالحين ص٤٠٢ رقم الحديث ١٥٤٨، بتحقيق ناصر الدين الألباني، مطبعة المكتب الإسلامي.

(٢) رواه أحمد والبغوي في شرح السنة. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم الحديث ٩٥١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٨٨، ورواه أبو داود في كتاب الزهد، باب ذا الوجهين ٤/ ٢٦٨، وأورده الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة ج٢/ ٥٨٤ برقم: ٨٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقائق باب الرياء والسمعة ٧/ ١٨٩. وأخرجه مسلم في كتاب الزهد

قال النووي: (سمّع بتشديد الميم، ومعناه: أظهر عمله للناس رياءً).

"سمّع الله به" أي فضحه يوم القيامة. ومعنىٰ "وَمَنْ يُرَائي"، أي من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم، وليس هو كذلك (يُرَائي اللهُ بِهِ): أي أظهر سريرته علىٰ رؤوس الخلائق [١].

قال الحافظ ابن حجر: (والفرق بينه -أي الرياء- وبين السُّمعة: أن الرياء هو العمل لرؤية الناس، والسُّمعة بحاسة السمع، ويدخل فيه أن يُخفي عمله لله، ثم يحدّث به الناس) [٢].

إن للمسلم وجهًا واحدًا حيثما كان، وله لسان واحد لا ينطق إلا بذكر مولاه. والإسلام قول وعمل ونية. فالنية هي رأس الأمر وعموده، فإذا فسدت فسد العمل كله. والأقوال والأعمال يجب أن تكون خالصةً لوجه الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف:١١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [سورة البينة:٤-٥].

وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩ برقم ٢٩٨٧.

(١) الحديث متفق عليه. انظر رياض الصالحين ٤٠٢ باب تحريم الرياء.

(٢) تيسير العزيز الحميد ص ٤٦٤، باب ما جاء في الرياء.

((إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله، فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه)) (١).

وقال تعالىٰ محذّرًا من المن والأذىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ [سورة البقرة:٢٦٤].

وإن أول من تسعَّر بهم نار جهنم يوم القيامة: عالم، وكريم منفق، وشجاع مقدام، رغم أنهم مسلمون، لكنهم كانوا مرائين. وأرادوا أن يتحدّث الناس عن عملهم وكرمهم وشجاعتهم:

روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **((إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأُتي به فعرّفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استُشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.**

ورجل تعلّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلّمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فُسحب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار.

ورجل وسّع الله عليه من أصناف المال، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي ١/ ٢، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب إنما الأعمال بالنيات ٢/ ١٥١٥، رقم الحديث ١٩٠٧. انظر شرح متن الأربعين النووية.

فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فُسحب علىٰ وجهه ثم ألقي في النار)) (١).

ومن النفاق العملي: الكذب، والغدر، وخلف الوعد، لما صحّ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **((آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان))**(٢).

ورحم الله من قال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا ... فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيـ ... ـننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

ومن النّفاق العملي أيضًا: النميمة. والنمّام: هو الذي ينقل كلام الغير إلىٰ المقول فيه، كما تقول فلان كان يتكلّم فيك كذا وكذا..، وحقيقة النميمة: إفشاء السرّ، وهتك الستر عما يكره كشفه، وإن كان ما ينم به نقصًا وعيبًا في المحكي عنه، كان قد جمع بين الغيبة والنميمة. وقال بعضهم: الحسد والنّفاق هي أثافي الذلّ. واتفقوا علىٰ أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق (٣).

والغيبة إذن من النّفاق العملي، ولها أوثق صلة بالنميمة، ولقد ذمّها الله في القرآن، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٢/ ١٥١٢، انظر شرح صحيح مسلم للنووي: ١٣/ ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/ ١٤. انظر فتح الباري ١/ ٩٧. وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافقين ١/ ٢٨. حديث رقم ١٠٧.

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ٣/ ١٥٨. مطبعة الحلبي.

﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحجرات:١٢].

وعن أبي هريرة ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبيّن فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**)) (١).

ومن النّفاق العملي: الحسد، والتجسّس. ومن الأسباب الرئيسة التي أدّت إلىٰ ظهور النّفاق في المدينة "**الحسد**" فعبد الله بن أبيّ حسد رسول الله ﷺ وكان يطمع أن يصبح ملكًا للعرب.

ومن قبل حسد إبليس آدم علىٰ المكانة التي أحرزها عند الله سبحانه وتعالىٰ. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النساء:٥٤].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العُشب**)) (٢).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**إياكم والظن، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم...**)) (٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان ٧/ ١٨٤. وأخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقاق، باب التكلّم بالكلمة يهوي بها في النار ٤/ ٢٢٩٠.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الزهد، باب الحسد ص٢٧٦، وابن ماجة ٢/ ٤٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهىٰ عن التحاسد والتدابر ٧/ ٨٨، وأخرجه مسلم في كتاب البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس ٤/ ١٩٨٥.

هذه الأمثلة علىٰ النّفاق العملي الذي هو من أكبر الذنوب. وقد لخّص شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– الحديث عن هذا النوع من النّفاق فقال: "قال ابن مسعود ﷺ: **(الغناء يُنبت النّفاق في القلب كما يُنبت الماء البقل)**، رواه أحمد وغيره.

وهذا كثير في كلام السلف، يبيّنون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق. والكتاب والسُّنة يدلان علىٰ ذلك، فإن النبي ﷺ ذكر شُعب الإيمان، وذكر شُعب النّفاق، وقال: **((من كانت فيه شعبة منهنّ كانت فيه شُعبة من النّفاق حتىٰ يدعها))**، وتلك الشُعبة قد يكون معها كثير من شُعب الإيمان.

ولهذا قال: **((ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان))**، فعُلم أن من كان معه من الإيمان أقلّ القليل لم يخلّد في النار، وأن من كان معه كثير من النّفاق، فهو يعذّب علىٰ قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار" [(١)].

وهذا النوع من النّفاق –أي العمليّ– هو الذي كان يخشاه الصحابة رضوان الله عليهم، قال عمر بن الخطاب ﷺ: (يا حذيفة [(٢)]، نشدتك بالله، هل سمّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا). وقال ابن أبي مليكة: (أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم يخاف النّفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه

---

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ٧/ ٣٠٤ مطبعة الرياض.

(٢) هو حذيفة بن اليمان العبسي حليف عبد الأشهل، شهد أُحُدًا والخندق وما بعدها، وروىٰ الكثير عن رسول الله ﷺ، كما روىٰ عن عمر. استعمله عمر علىٰ المدائن فلم يزل بها حتىٰ مات بعد قتل عثمان وبعد بيعة عليّ بأربعين يومًا وذلك في سنة ست وثلاثين، وفي الصحيحين أن أبا الدرداء قال لعلقمة: أليس فيكم صاحب السرّ الذي لا يعلمه غيره يعني حذيفة، وفيهما –أي في الصحيحين– عن عمر أنه سأل حذيفة عن الفتنة، وشهد حذيفة فتوح العراق، وله بها آثار شهيرة. عن الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٣١٧.

كإيمان جبريل وميكائيل) ذكره البخاري.

وذُكر عن الحسن البصري أنه قال: (ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن).

ولقد ذُكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من خشوع النّفاق. قيل: وما خشوع النّفاق؟ قال: أن يُرىٰ البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع) [1].

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية: ١/ ٣٥٧.

الحدّ الفاصل بين النّفاقين

يستسهل الناس الوقوع في بعض الذنوب والمعاصي، ويقلّلون من شأنه. فإذا قلت لأحدهم: هذا العمل من النّفاق العمليّ، فكأنك تقول له هذا لغو أو عمل مكروه.

وأفضل من هذا وذاك قول رسول الله ﷺ: ((**إن المؤمن إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقل قلبه. فإن زاد زادت. فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المطففين:١٤].))[(١)].

والذنب يغشىٰ القلب، لأنه موضع الفكر، وسيد الجوارح، وموضع التصديق. فإذا استمرأ المسلم الذنب وقع فيه تراكمت الذنوب علىٰ قلبه كظلمات بعضها فوق بعض، فتحول بينه وبين النور، وتحيط به خطاياه من كلّ جانب.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ((**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البرّ، وإن البرَّ يهدي إلىٰ الجنّة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرّىٰ الصدق، حتىٰ يُكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرّىٰ الكذب، حتىٰ يُكتب عند الله كذّابًا**)) [(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: (الفجور: شقّ ستر الديانة، ويُطلق علىٰ الميل إلىٰ الفساد، وعلىٰ الانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع للشرّ).

---

(١) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة في كتاب الزهد ٢/ ١٤١٨، دار إحياء التراث، وأخرجه أحمد في المسند، انظر الفتح الرباني ٢/ ٢٩٧، ورواه الترمذي أيضًا وقال عنه: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما يُنهىٰ عن الكذب ٧/ ٩٥، وأخرجه مسلم أيضًا في كتاب البر ٤/ ٢٠١٢ حديث رقم ٢٦٠٧.

وفي قوله ﷺ: ((**حتىٰ يُكتب عند الله كذّابًا**)) المراد بالكتابة الحكم عليه بذلك، وإظهاره للمخلوقين من الملأ الأعلىٰ، وإلقاء ذلك في قلوب أهل الأرض. وقد ذكره مالك بلاغًا عن ابن مسعود، وزاد فيه زيادةً مفيدةً ولفظه: ((**لا يزال العبد يكذب ويتحرّىٰ الكذب فيُنْكت في قلبه نكتة سوداء، حتىٰ يسودّ قلبُه، فيُكتب عند الله من الكاذبين**)) [١].

وإذا كُتب العبد عند الله كذّابًا، وأحاطت به خطاياه، يكون قد قطع شوطًا في رحلته النكدة، رحلة الرياء والنّفاق. وإذا وصل شكّه وتكذبيه إلىٰ العقيدة والدين صار من المنافقين الكافرين، والعياذ بالله.

عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: (القلوب أربعة: قلب أغلف، فذلك قلب الكافر، وقلب مصفّح، وذلك قلب المنافق، وقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدّها ماء طيّب، ومثل النّفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم، فأيهما غلب عليه غلب) [٢].

فيجتمع في المسلم إيمان ونفاق. وقد يكون نفاقه عمليًّا، ثم يزداد فيتحوّل إلىٰ اعتقادي. وقد يتعذّر في كثير من المواقف التمييز بين النّفاقين: العملي والاعتقادي.

ومن أجل مزيد من الإيضاح نختار المثاليْن الآتييْن:

المثال الأول: الرياء:

عند الحديث عن النّفاق العملي قلنا: إن الرياء من أهمّ أقسامه، وقصدنا يسير الرياء

---

(١) الحديث متفق عليه. انظر فتح الباري كتاب الأدب ١٣/ ١٢٢.

(٢) قول حذيفة رواه أبو داود قال: حدثنا ابن أبي شيبة جرير عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي البحتري عن حذيفة، وقد روي مرفوعًا وهو في المسند. انظر فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ٧/ ٣٠٤.

وليس كثيره. فالرياء أحيانًا يكون من النّفاق الاعتقادي. ونعرض فيما يأتي أهم أقوال العلماء في الرياء:

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: (واعلم أن العمل لغير الله أقسام: تارةً يكون رياءً محضًا، بحيث لا يُراد به سوىٰ مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [سورة النساء:١٤٢]. وقال جل وعلا: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [سورة الماعون:٤-٥].

وكذلك وصف الله تعالىٰ الكفار بالرياء المحض في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [سورة الأنفال:٤٧].

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة، أو الحج الواجب، أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدّىٰ نفعها. فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت والعقوبة من الله.

وتارةً يكون العمل لله، ويشاركه رياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه. وذكر ابن رجب أحاديث تدل علىٰ ذلك:

منها حديث شدّاد بن أوس مرفوعًا، قال: (من صلّىٰ يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك، فإن الله عز وجل يقول: أنا خيرُ قسيم لَمن أشركَ بي، مَنْ أشركَ بي شيئًا فإن حشده عمله قليله وكثيرهُ لشريكهِ الذي أشركَ بِهِ، وأنا عَنْهُ

غَنِيٌّ) [1]، رواه أحمد، وذكر أحاديث في المعنىٰ. ثم قال: (فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية).

وقال ابن رجب: (وقال الإمام أحمد رحمه الله: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم علىٰ قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره).

وقال أيضًا فيمن يأخذ جُعْل الجهاد: (إذا لم يخرج من أجل الدراهم فلا بأس، كأن خرج لدينه إن أُعطي شيئًا أخذه).

وروي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (إذا أجمع أحدكم علىٰ الغزو فعوّضه الله رزقًا فلا بأس بذلك، وأما إن كان أحدكم إن أُعطي درهمًا غزا، وإن لم يعط لم يَغْزُ فلا خيرَ في ذلك).

وأضاف ابن رجب قائلاً: (وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء: فإن كان خطرًا ثم دفعه فلا يضرّه بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، فيجازىٰ علىٰ أصل نيته؟

وفي ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يُجازَىٰ بنيته الأولىٰ. وهو مرويّ عن الحسن وغيره. وفي هذا المعنىٰ جاء حديث أبي ر الغفاري عن النبي ﷺ أنه سُئل عن الرجل يعمل العمل من

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٢٦.

الخير يحمده الناس عليه، قال: ((**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**)) [١]. انتهىٰ كلام الحافظ ابن رجب الحنبلي ملخّصًا) [٢].

وتحدّث أبو حامد الغزالي عن الرياء، فكان كلامه مشابهًا لما قاله ابن رجب الحنبلي، فجعل للرياء أركانًا ثلاثةً:

المُراءَىٰ به، المُراءَىٰ لأجله، ونفس قصد الرياء.

ومن الأقسام التي تحدّث عنها: الرياء بأصل الإيمان، وهو الكفر أو الذي وصفه ابن رجب بالرياء المحض، والرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، والرياء بالنوافل والسُنن، والرياء بزيادات خارجة عن النوافل، وغرضه أن يُعرف بالأمانة فيُوَلَّي القضاء أو الأوقاف، ليستأثر بما قدر عليه منه، والذي يرائي ويكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة [٣].

وجملة القول لم يخرج الغزالي عن الإطار الذي سلكه ابن رجب والإمام أحمد، بل أضاف أنواعًا وأقسامًا مهمّةً وواقعةً عن الرياء والمرائين.

وتكلم الصنعاني عن الرياء، فذكر من أقسامه الرياء بالإيمان، وهو إظهار كلمة الشهادة، وباطنه مكذّب، فهو مخلّد في النار في الدرْك الأسفل منها. وفي هؤلاء أنزل الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

(١) أخرجه مسلم في كتاب السير ٤/ ٢٠٢٤، رقم الحديث ٢٦٤٢.

(٢) جامع العلوم والحكم ١٣/ ١٤. شرح حديث "إنما الأعمال بالنيات" طبعة الرياض، وانظر فتح المجيد ص٣٦٩.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠١-٣٠٢. المكتبة التجارية بمصر.

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [سورة المنافقون:١].

وقريب منهم الباطنية الذين يُظهِرون الموافقة في الاعتقاد ويُبطنون خلافه.

وقال الصنعاني أيضًا: إذا عرض الرياء بعد الفراغ من فعل العبادة، لم يؤثّر فيه إلا إذا أظهر العمل وتحدّث به. وقد أخرج الديلمي مرفوعًا: "إن الرجل ليعمل عملاً سرًّا، فيكتبه الله عنده سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتىٰ يتكلّم به، فيُمْحَىٰ من السرّ، ويُكتب علانيةً، فإن عاد تكلّم الثانية مُحِيَ من السرّ والعلانية، وكُتبَ رياءً. وأما إذا قارن باعثُ الرياء باعثَ العبادة، ثم ندم في أثناء العبادة، فأوجب البعض من العلماء الاستئناف لعدم انعقادها، وقال بعضهم: يلغو جميع ما فعله إلا التحريم. وقال بعضهم: يصح، لأن النظر إلىٰ الخواتم كما لو ابتدأنا بالإخلاص وصحبه الرياء من بعده. انتهىٰ كلام الصنعاني [1].

فمن الرياء ما يكون كفرًا أو نفاقًا اعتقاديًّا. وهذا الرياء وصفه ابن رجب بالرياء المحض. وقال عنه الغزالي: رياء بأصل الإيمان أو رياء بالإيمان، كما قال الصنعاني: أما بقية أنواع الرياء فليست كفرًا، وإنما هي من كبائر الذنوب. وقال ابن رجب عن هذه الأنواع من الرياء: (وهذا العمل -أي الرياء في الصدقة أو الحج- لا يشك مسلم انه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة).

فالذي يحبطه الله العمل، وليس أصل الإيمان. ومن دأَب علىٰ الرياء لا شك أن الله يمقته، والمقت لا يعني الكفر والنّفاق الأكبر.

وقبل أن نختم حديثنا عن الرياء نعيد للعظة والتدبّر قول عبد الله بن عمرو، الذي استدل به ابن رجب مع التعليق عليه: قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (إذا أجمع

(١) سبل السلام للأمير الصنعاني ٤/ ٣٥٧ دار الكتاب العربي.

أحدكم إن أعطي درهمًا غزا، وإن لم يُعْطَ لم يَغْزُ، فلا خير في ذلك).

والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فكل عمل ينطبق عليه هذا القول.

ترىٰ لو قُطعت رواتب الوعّاظ والمدرسين وخطباء الجمع والأعياد ومكافآتهم، كم عدد الذين يستمرّون منهم في عملهم لوجه الله؟!

ولا نقول إلا ما قاله ابن عمرو: لا خير في هذه الأعمال، إن كان الداعية لا يقوم بها إلا لقاء الأجر، وإذا انقطع الأجر انقطع عمله. ولا يعني هذا أنني أقول بحرمة المرتّبات والمكافآت، وإنما أقول: يجب علىٰ الدعاة أن يقوموا بواجبهم لوجه الله، فإذا عوّضهم الله رزقًا فلا بأس بذلك، وعليهم أن يجتهدوا في تأمين أرزاقهم من طرق أخرىٰ. وهذا الذي كان يفعله أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ [سورة هود: ٥٠-٥١].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩﴾ [سورة الشعراء: ١٠٥-١٠٩].

المثال الثاني: آية المنافق:

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: ((**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**)) (١).

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ١/ ١٤ في باب "من أمر بإنجاز الوعد" برقم ٢٦٨٢ انظر فتح الباري ٥/ ٣٦٢.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((**أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النّفاق حتىٰ يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**)) (١).

إن الكذب، وخيانة العهد، وإخلاف الوعد من الكبائر. ومرتكب الكبيرة لا يكفر، بل هو مؤمن بإيمانه، فاسق بفسقه. أما إن كان الكذب في أصل عقيدته ونيته فالأمر يختلف. وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ نتبيّن وجه الاقتصار علىٰ هذه العلامات الثلاث، إذ أن أصل الدين منحصر في ثلاث: القول، العمل، والنية. فنبّه علىٰ فساد القول بالكذب، وعلىٰ فساد الفعل بالخيانة، وعلىٰ فساد النية بالحلف (٢).

قال الكرماني: (إن حذف المفعول من "حدّث" يدل علىٰ العموم، أي إذا حدّث في كلّ شيء كذب فيه، أو يصير قاصرًا، أي إذا وجد ماهية التحديث كذب. وقيل هو محمول علىٰ من غلبت عليه هذه الخصال، وتهاون بها واستخفّ بأمرها، فإن من كان كذلك كان فاسد الاعتقاد غالبًا (٣)، وقيل: إنّ هذا كان في حق المنافقين، الذين كانوا في أيامه ﷺ، تحدّثوا بإيمانهم فكذبوا، واؤتُمنوا علىٰ رسلهم فخانوا، ووعدوا في الدين بالنصر فغدروا، وأخلفوا وفجروا في خصوماتهم.

وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح، ورجع إليه الحسن بعد أن كان علىٰ خلافه. وهو مروي عن ابن عباس، وابن عمر روياه عن النبي ﷺ قال القاضي عياض:

---

(١) رواه البخاري عن عمرو بن العاص ١/ ١٤، ومسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق ١/ ٧٨.

(٢) فتح الباري من كلام الحافظ ابن حجر ١/ ٩٧.

(٣) فتح الباري: ١/ ٩٨.

وإليه مال كثير من الفقهاء.

والآراء السالفة قالها الذين يميلون إلىٰ تفسير قوله ﷺ: ((**كان منافقًا خالصًا**)) أي كان نفاقه في عقيدته ودينه.

أما الرأي الثاني فقد قال الإمام النووي: هذا الحديث عدَّه جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال قد توجد في المسلم المجمَع علىٰ عدم الحكم بكفره، قال: وليس فيه إشكال، بل معناه صحيح، والذي قاله المحقّقون: إن معناه أن هذه خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلّق بأخلاقهم. وممن قال برأي النووي: الحافظ ابن حجر، والقرطبي، وابن العربي [1].

(١) انظر فتح الباري: ١/ ٩٨ وتفسير القرطبي: ٢١٣.

الفصل الثاني: صفات المنافقين

كان البحث في شكله القديم يتطلّب إضافة فصل أبيّن فيه صفات المنافقين، وقمت بجمع مادة هذا الفصل من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء. فتجمّع لدي كم كبير من الأوراق، ولما كان موضوع بحثي يقتضي الإيجاز، فقد أكتفيت بما كتبه الإمام ابن قيم الجوزية في سِفره النفيس (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)، لأنه - رغم إيجازه- قد شمل كلّ ما كنت أنوي التعرّض له. وفضلاً عن ذلك فقد تميّزت صياغته بأسلوبه الفريد، ورأيه السديد، ودقة استنباطه. ولا غرابة في ذلك، فابن القيم من نوادر العلماء الذين يحسنون القول في نصرة الحق، وفضح الباطل وأهله. وكما قال الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السُّنة:

(وفي الحق إنّ كتاب (مدارج السالكين) من خير ما كتب الإمام ابن القيم -وحسبك بابن القيم- في تهذيب النفوس والأخلاق والتأدّب بآداب المتقين الصادقين، الذين طابت نفوسهم بتقوىٰ الله، واستنارت بصائرهم بهدىٰ الله).

قال رحمه الله: وأما النّفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئًا منه، وهو لا يشعر. فإنه أمر خفيّ علىٰ الناس. وكثيرًا ما يخفىٰ علىٰ من تلبّس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: يوجب الخلود في النار في درْكها الأسفل، وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو في الباطن منسلخ من ذلك كلّه مكذّب به. لا

يؤمن بأن الله تكلّم بكلام أنزله علىٰ بشر جعله رسولاً للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه. وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلّىٰ لعباده أمورهم، ليكونوا منها ومن أهلها علىٰ حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدّة فتنتهم علىٰ الإسلام وأهله، فإن بليّة الإسلام بهم شديدة جدًّا، لأنهم منسوبون إليه، وإلىٰ نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخرجون عداوته في كلّ قالب يظنّ الجاهل أنه علم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟ وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عملوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبليّة، ولا يزال يطرقه من شُبَههم سرية بعد سرية، ويزعمون، أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة البقرة:١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الصف:٨]، اتفقوا علىٰ مفارقة الوحي، فهم علىٰ ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة المؤمنون:٥٣]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١١٢].، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ

﴿قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الفرقان: ٣٠].

دَرَسَت معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودُثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحبونها، وكفت شمسه عند اجتماع ظُلَم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها، لم يقبلوا هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسًا، ولم يروا بالإعراض عنه إلىٰ آرائهم وأفكارهم بأسًا، خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنّوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف علىٰ أقوام لئام، فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام، وتلقّوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها والأعجاز.

وقالوا: مالك عندنا من عبور -وإن كان لابد- فعلىٰ سبيل الاجتياز، أعدّوا لدفعها أصناف العُدَد وضروب القوانين، وقالوا -لما حلّت بساحتهم-: ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئًا من اليقين. وعوامّهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخّرين، فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور، ولم يتفرّغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هِمَمهم إلىٰ فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخّرين: أعلم وأحكم. وطريقة السلف [١] الماضين: أجهل، لكنها أسلم، أنزلوا نصوص السُّنة والقرآن منزلة الخليفة في هذا الزمان، اسمه علىٰ السكة وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره [٢]، فحكمه غير

(١) لا، بل طريق السلف أعلم، وأحكم، وأسلم.

(٢) رحم الله ابن القيم كيف لو رأىٰ حالنا اليوم، حيث لم يعد هناك خليفة، ولا تحكيم لشريعة الله.

مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، علىٰ قلوب أهل الزيغ والخسران، والغلّ والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيّزت إلىٰ الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة البقرة:١١-١٢].

المتمسّك عندهم بالكتاب والسُّنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول، والدوائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارًا، فَهَمُّه في حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كعادة، وما هو عندهم بمقبول. وأهل الاتّباع عندهم سفهاء فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيّرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة البقرة:١٣].

لكلّ منهم وجهان: وجه يلقىٰ به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلىٰ إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البقرة:١٤].

قد أعرضوا عن الكتاب والسُّنة استهزاءً بأهلها واستحقارًا، وأبوْا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحًا بما عندهم من العلم، الذي لا ينفع الاستكثار منه أشرًا واستكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسّكين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٥].

خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشُبَه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [سورة البقرة:١٦].

أضاءت لهم نار الإيمان، فأبصروا في ضوئها مواقع الهدىٰ والضلال، ثم طفئ ذلك النور، وبقيت نارًا تأجّج ذات لهب واشتعال، فهم بتلك النار مُعَذَّبُون، وفي تلك الظلمات يعمهون ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [سورة البقرة:١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقْر[١]، فهي لا تسمع منادي الإيمان، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمىٰ، فهي لا تبصر حقائق القرآن، وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿صُمُۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [سورة البقرة:١٨].

صاب[٢] عليهم صيّب الوحي، وفيه حياة القلوب والأرواح، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وظفت عليهم في السماء والصباح، فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدُّوا في الهرب. والطلب في آثارهم والصياح، فنُودي عليهم علىٰ رؤوس الأشهاد، وكُشفت حالهم للمستبصرين، وضُرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلّدين. فقيل: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾

(١) الوقْر: ثقل في الأذن، أو ذهاب السمع كله.

(٢) الصيب: السحاب ذو المطر

[سورة البقرة:١٩] [(١)]، ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيّب من بروق أنواره وضياء معانيه، وعجزت أسماعهم عن تلقّي رعود وعوده وأوامره ونواهيه. فقاموا عند ذلك حيارىٰ في أودية التيه، لا ينتفع بسمعه السامع، ولا يهتدي ببصره البصير ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة البقرة:٢٠].

لهم علامات يعرفون بها مبيّنة في السُّنة والقرآن، بادية لمن تدبّرها من أهل بصائر الإيمان، قام بهم –والله– الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان، وقعد بهم الكسل عما أُمروا به من أوامر الرحمن، فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلاً، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة النساء:١٤٢].

أحدهم كالشاة العائرة [(٢)] بين الغنمين، تيْعرُ إلىٰ هذه مرّةً، وإلىٰ هذه مرّةً، ولا تستقر

(١) ومن روائع سيد قطب قوله في هذه الآية: "إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء.. صيّب من السماء هاطل غزير (فيه ظلمات ورعد وبرق).. (كلما أضاء لهم مشوا فيه).. (وإذا أظلم عليهم قاموا).. أي وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون. وهم مفزّعون: (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت). إن الحركة التي تغمر المشهد كله: من الصيّب الهاطل، إلىٰ الظلمات والرعد والبرق، إلىٰ الحائرين المفزّعين فيه، إلىٰ الخطوات المروّعة الوجلة، التي تقف عندما يخيم الظلام.. إن هذه الحركة في المشهد لترسم –عن طريق التأثّر الإيحائي– حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون.. بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين.. بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدىٰ ونور وما يفيئون إليه من ضلال وظلام.. فهو مشهد حيّ يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورةً شعوريةً، وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس. [في ظلال القرآن ١/ ٤٦].

(٢) متردّدة بين قطيعين، لا تدري أيهما تتبع.

مع إحدىٰ الفئتين، فهم واقفون بين الجمعين، ينظرون أيهم أقوىٰ وأعزّ قبيلا ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [سورة النساء:١٤٣].

يتربّصون الدوائر بأهل السُّنة والقرآن، فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا علىٰ ذلك بالله جهد أيمانهم، وإن كان لأعداء الكتاب والسُّنة من النصر نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم، وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفتهم من كلام رب العالمين، فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلٗا ١٤١﴾ [سورة النساء:١٤١].

يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويُشهد الله علىٰ ما في قلبه من كذبه ومَيْنه، فتراه عند الحق نائمًا، وفي الباطل علىٰ الأقدام، فخذ وصفهم من قول القدّوس السلام ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [سورة البقرة:٢٠٤].

أوامرهم التي يأمرون به أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد، ونواهيهم عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [سورة البقرة:٢٠٥].

فهم جنس بعضه يشبه بعضًا، يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف

بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه.. كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟! وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليتجنّبوه؟! فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة التوبة:٦٧].

إنْ حاكمتهم إلىٰ صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين، وإن دعوتهم إلىٰ حكم كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين، فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدىٰ أمدًا بعيدًا، ورأيتها معرضةً عن الوحي إعراضًا شديدًا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [سورة النساء:٦١].

فكيف لهم بالفلاح والهدىٰ! بعد ما أُصيبوا في عقولهم وأديانه؟ وأنَّىٰ لهم التخلّص من الضلال والردىٰ؟ وقد اشتروا الكفر بإيمان؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقًا ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [سورة النساء:٦٢].

نشب زقّوم الشُّبَه والشكوك في قلوبهم، فلا يجدون له مسيغًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النساء:٦٣].

تبًّا لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان، فالقوم في شأن وأتباع الرسول في شأن، لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدّسة قَسَمًا عظيمًا، يعرف مضمونه أولو البصائر، فقلوبهم منه علىٰ حذر إجلالاً له وتعظيمًا، فقال

تعالىٰ تحذيرًا لأوليائه وتنبيهًا علىٰ حال هؤلاء وتفهيمًا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سورة النساء:٦٥] (١).

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعترض عليه، لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه، فيتبرّأ بيمينه من سوء الظنّ به وكشف ما لديه، وكذلك أهل الريبة يكذبون، ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة المنافقون:٢].

تبًّا لهم! برزوا إلىٰ البيداء مع ركب الإيمان، فلما رأوا طول الطريق وبُعد الشُّقة نكصوا علىٰ أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتّعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم، فما مُتّعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا، فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا، فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا، وعموا بعدما عاينوا الحق وأبصروا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة المنافقون:٣].

أحسن الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا، وألطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا، وأضعفهم جنانًا، فهم كالخُشُب المسنّدة التي لا ثمر لها، قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلىٰ حائط

(١) إن الذين يقدّمون حكم الطاغوت علىٰ حكم الله عن علم وطواعية واختيار، ويتخذونه نظام حياة لهم، أو الذين يفرضون علىٰ شعوبهم حكم الطاغوت، يرفضون حتىٰ مساواته بحكم الشريعة الإسلامية، هم منافقون، ونفاقهم اعتقادي. قال تعالىٰ: (وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) (النساء: ٦١). وقال: (ألم تر إلىٰ الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلّهم ضلالاً بعيدًا) (النساء: ٦٠).

يقيمها، لئلا يطأها السالكون ﴿* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة المنافقون:٤].

يؤخّرون الصلاة عن وقتها الأول إلىٰ شَرَق الموتىٰ [1]، فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب، إذ هي صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب، ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب، ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلىٰ أحدهم ففي البيت أو الدكان، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر، وإذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، هذه معاملتهم للخلق، وتلك معاملتهم للخالق، فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر والسماء والطارق فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة التوبة:٧٣].

وهم الأقلّون، وما أجبرهم! وهم الأذلّون. وما أجهلهم! وهم المتعالمون، وما أغرّهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة التوبة:٥٦].

إن أصاب أهل الكتاب والسُّنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمّهم، وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحّص به ذنوبهم، ويكفّر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرّهم،

---

(١) قال في القاموس: شرقت الشمس: ضعف ضوءها، أو دنت للغروب، وأضافه ﷺ إلىٰ الموتىٰ فقال: "يؤخّرون الصلاة إلىٰ شرق الموتىٰ"، لأن ضوءها عند ذلك الوقت ساقط علىٰ المقابر، أو أراد: أنهم يصلونها ولم يبق من النهار إلا بقدر ما يبقي من نفس المحتضر إذا شرق بريقه، (عن النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة شرق).

وهذا يحقّق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه المنافقون ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة التوبة:٥٠-٥١].

وقال تعالىٰ في شأن السّلَفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [سورة آل عمران:١٢٠].

كره الله طاعاتهم، لخبث قلوبهم وفساد نيّتهم، فثبّطهم عنها وأقعدهم، وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلىٰ أعدائه، فطردهم عنه وأبعدهم، وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم، وأشقاهم وما أسعدهم، وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين، فقال تعالىٰ: ﴿* وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة التوبة:٤٦].

ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، فقال، وهو أحكم الحاكمين: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة التوبة:٤٧].

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها، وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها، وتفلّتت منهم السُنن أن يحفظوها فأهملوها، وصالت عليهم نصوص الكتاب والسُّنة فوضعوا لها قوانين ردّوها بها ودفعوها، وقد هتك الله أستارهم، وكشف أسرارهم،

وضرب لعباده أمثالهم، وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه، ليكونوا منها علىٰ حذر، وبينها لهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾ [سورة محمد:٩].

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص، فرآها حائلةً بينه وبين بدعته وهواه، فهي في وجهه كالبنيان المرصوص، فباعها بمحصل من الكلام الباطل، واستبدال منها بالفصوص [١] فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم ذلك بأنهم﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۝٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾ [سورة محمد:٢٦-٢٧].

أسّروا سرائر النّفاق، فأظهرها الله علىٰ صفحات الوجوه منهم، وفلتات اللسان، ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها علىٰ أهل البصائر والإيمان، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجُوا علىٰ الصيارف والنُّقاد، كيف والناقد البصير قد كشفها لكم؟ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ [سورة محمد:٢٩-٣٠].

فكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق، وتجلّىٰ الله جل جلاله للعباد، وقد كشف عن ساقٍ؟ ودُعوا إلىٰ السجود فلا يستطيعون ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [سورة القلم:٤٣].

أم كيف بهم إذا حُشروا إلىٰ جسر جهنم؟ وهو أدقّ من الشعرة، وأحدّ من الحسام،

---

(١) هو كتاب الفصوص ، وفيه كفريات وضلالات شنيعة.

وهو دحض مزّلة، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام، فقُسّمت بين الناس الأنوار، وهم علىٰ قدر تفاوتها في المرور والذهاب، وأُعطوا نورًا ظاهرًا مع أهل الإسلام، كما كانوا بينهم في هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام، فلما توسّطوا الجسر عصفت علىٰ أنوارهم أهوية النّفاق، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح، فوقفوا حيارىٰ لا يستطيعون المرور، فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة، ينادون من تقدّمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح علىٰ بعد كالنجوم، تبدو لناظر الإنسان ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [سورة الحديد:١٣]، لنتمكّن في هذا المضيق من العبور، فقد طُفئت أنوارنا، ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾ [سورة الحديد:١٣] ، حيث قُسّمت الأنوار!!

فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار، كيف نلتمس الوقوف في هذا المضيق؟ فهل يلوي اليوم أحد علىٰ أحد في هذا الطريق؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلىٰ رفيق؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار، كما يذكر الغريبُ صاحبَ الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ [سورة الحديد:١٤]، نصوم كما تصومون، ونصلي كما تصلون، ونقرأ كما تقرؤون، ونتصدّق كما تتصدّقون، ونحجُّ كما تحجّون؟ فما الذي فرّقَ بيننا اليوم، حتىٰ انفردتم دوننا بالمرور؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [سورة الحديد:١٤]، ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كلّ ملحد، وكل ظلوم كفور ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾ [سورة

الحديد:١٤-١٥].

لا تستطل أوصاف القوم، فالمتروك والله أكثر من المذكور، كاد القرآن أن يكون كلّه في شأنهم، لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطّل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات، سمع حذيفة ﷺ رجلاً يقول: (اللهم أهلك المنافقين، فقال: يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلّة السالك).

تالله لقد قطع خوف النّفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقّه وجلّه وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتىٰ خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما: (يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سمّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أزكيّ بعدك أحدًا)، وقال ابن أبي مليكة: (أدركتُ ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلّهم يخاف النّفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنّ إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل) ذكره البخاري [1].

وذكره عن الحسن البصري: (ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن، ولقد ذُكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النّفاق، قيل: وما خشوع النّفاق؟ قال: أن يُرىٰ البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع).

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفهم من النّفاق شديد، وهمّهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

---

(١) بعض هذه الأحاديث والآثار وردت فيما مضىٰ من هذا الفصل.

زرْع النّفاق ينبت علىٰ ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء، ومخرجهما من عينين: عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة، فإذا تمّت هذه الأركان الأربع استحكم نبات النّفاق وبنيانه، ولكنه بمدارج السيول علىٰ شفا جرف هارٍ، فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلىٰ السرائر، وكُشف المستور، وبُعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور، تبيّن حينئذ لمن كانت بضاعته النّفاق أن حواصله التي حصّلها كانت كالسراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة النور:٣٩].

قلوبهم عن الخيرات لاهية، وأجسادهم إليها ساعية، والفاحشة في فجاجهم فاشية، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسيةً، وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعيةً.

أمارات النّفاق:

فهذه والله أمارات النّفاق، فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية، إذا عاهدوا لم يفوا، وإن وعدوا أخلفوا، وإن قالوا لم ينصفوا، وإن دُعُوا إلىٰ الطاعة وقفوا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول صدفوا، وإذا دعتهم أهواؤهم إلىٰ أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا، فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان، والخزي والخسران، فلا تثق بعهودهم، ولا تطمئن إلىٰ وعودهم، فإنهم فيها كاذبون، وهم لما سواها مخالفون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة التوبة:٧٥-٧٧] (١).

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/ ٣٥٩-٣٤٧).

الفصل الثالث: كيف نحصّنُ الصفَّ الإسلاميّ من المنافقين؟

تمهيـــد:

مرّت فترات اشتدّ فيها عود الجماعات الإسلامية المعاصرة، وقويت شوكتها، وعلا أمرها، وأصبحت قريبةً من سُدّة الحكم في أكثر من بلد من عالمنا الإسلاميّ الكبير.

وفي مثل هذه الأجواء يستغل المنافقون مبدأ التوبة إلىٰ الله، فيتردّدون علىٰ المساجد، ويشهدون حلقات الذكر، ويكتبون المقالات والبحوث التي يعربون فيها عن ندمهم علىٰ ما اقترفته أيديهم من ذنوب ومعاصٍ، ويتبرّؤون من ماضيهم الأسود، ويشنّون حربًا ضروسًا علىٰ رفاق دربهم القُدامىٰ من الفاسدين والمفسدين.

ويرحب بتوبتهم الذين يأخذون الأمور علىٰ ظواهرها من الدعاة القادة، فإذا قيل لهم: احذروا من هؤلاء الوافدين الجدد، ولا تُسندوا إليهم مناصب قياديةً، وتذكّروا ظهور النّفاق بعد غزوة بدر الكبرىٰ، ولا تنسوا أن تفشّي هذه الظاهرة يكثر بعد انتصارات الدعاة والجماعات والإسلامية، قالوا: لم نكّلف بالبحث عن نوايا الناس وما تُخفيه قلوبهم، والذي نعلمه أن التوبة تَجُبّ ما قبلها، والله جل وعلا يغفر الذنوب جميعًا، إنه هو الغفور الرحيم.

ونحن لا نطلب من إخواننا الدعاة القادة البحث عن نوايا الناس، وما تكنّه قلوبهم، ولا نريد منهم طرد من جاء تائبًا مستغفرًا، ولكن الذي نريده ونؤكّد عليه ألا تُسند لهؤلاء التائبين وظائف قيادية، لأن علمهم الشرعيّ وماضيهم لا يسمحان بذلك.

وفي خضم هذه الأنشطة السياسية التي تنقصها التربية والإعداد، اخُترِقت معظم

الجماعات الإسلامية من قبل أشخاص مشبوهين، يقولون ما لا يفعلون، ويُظهرون ما لا يبطنون، أو من قبل أشخاص مترفين، يظنون أن الدعوة إلىٰ الله، والعمل من أجل تحكيم شريعته خالية من التمحيص والابتلاء وخشونة العيش.

اخترق هؤلاء وأولئك معظم الجماعات الإسلامية، وكلّ منهم كان ينتظر أن يكون بعد أيام أو بعد أشهر (صاحب المعالي) أو (صاحب السيادة) لا سيما وهم يملكون المؤهلات اللازمة: كالوجاهة، والشهادات، والغنىٰ، ومن ثم فهم يعتقدون أن الجماعات الإسلامية لا تستطيع الوصول إلىٰ الحكم إذا استغنت عن خدماتهم، أو زهدت بهم.

وشاء الله سبحانه وتعالىٰ –ولا رادّ لمشيئته– أن يُساق أصحاب السيادة والمعالي إلىٰ السجون والمعتقلات، بدلاً من استلام كراسي الحكم –وشتّان بين هذا وذاك–، وفي هذه الأوكار التي لا تُطاق، تعرّضوا لأسوأ أنواع التعذيب: كالضرب باليد، والعصي، و (الكرابيج)، والصدمات الكهربائية، و (الفلقة)، وتعليق السجين من قدميه مع ترك رأسه يتدلّىٰ إلىٰ الأسفل، وضربه ضربًا مبرِّحًا وهو علىٰ هذه الحالة، وغير ذلك مما ابتكره شياطين الغرب والشرق وصدّروه إلىٰ بلادنا.

لم يألف المترفون، وأصحاب السيادة والمعالي، وضعاف الإيمان هذا النوع من الحياة، وأمام ذلك فهم مستعدّون لتلبية ما يطلبه الطغاة منهم، مقابل الإفراج عنهم. والطغاة خبراء (من خلال أجهزة أمنهم) بأحوال هذا الصنف من الناس، فهم يأخذون منهم كلّ ما يريدون من أسرار ومعلومات تضرّ بالعمل الإسلاميّ، ثم ينظرون بأمرهم، فقد يحقّقون للسجين طموحه وأهواءه، وينتقلون به من السجن إلىٰ الوزارة مباشرةً، ومن

غير مراحل.

وهذا ما حدث للدكتور عبد العزيز كامل في مصر، وقد يتركونهم في ظلمات المعتقلات، في حالة لا يُحسدون عليها. فلا هم كسبوا رضىٰ ربهم، ولا الطاغوت قدّم لهم ما وعدهم به، وأقل هذه الوعود الإفراج عنهم.

وسوف أذكر في هذا البحث أمثلةً علىٰ هذه الاختراقات، التي أضرّت بالعمل الإسلاميّ، ووقفت عائقًا دون تحقيق الأهداف التي ينشدها العاملون إلىٰ الله. وهذه (الأمثلة) بعض من كلّ، وقليل من كثير. ومن جهة أخرىٰ فالأمثلة التي وقع عليها اختياري، ليست اجتهادًا انفردت به، بل هي من المسائل التي يتّفق عليها المطّلعون علىٰ مجريات الأحداث في بلادنا رغم اختلاف مواقفهم، وتباين انتماءاتهم.

وبعد الانتهاء من سرد الأمثلة سوف يظهر للقارئ المنصف فشل معظم الدعاة والجماعات الإسلامية في مواجهة هذه الاختراقات، لا لأنها لم تستفد من هدي رسول الله ﷺ مع المنافقين، الذين حاولوا اختراق الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، مع أن عدد المسلمين كان أكبر من عدد أية جماعة إسلامية من الجماعات، التي تعرّضت لهذه الاختراقات.

وسنبيّن بعد ذلك الأسلوب الذي سلكه رسول الله ﷺ في التعامل مع المنافقين، وسلكه من بعده الصحابة، وفي طليعتهم الشيخان رضي الله عنهم أجمعين.

المثال الأول:
الطليعة الإسلامية

عندما انفرد نظام بعث النصيرية بحكم سورية كان همّه الأول محاربة الإسلام والمسلمين، وتاريخهم في الحكم يشهد بأنهم فعلوا كلّ ما يقدرون عليه من أجل كبت الأنفاس، وإفساد الأجيال، ونشر الرشوة والفسق والفجور والمعاصي بين الناس.

ومما فعلته هذه العصبة: هدم جامع السلطان في حماة، وهدم جزء من الجامع الأموي في دمشق.. وما كان رجل مثل الشيخ مروان حديد من الذين يرضون الدنيّة في دينهم، وكيف يسكت علىٰ جرائم ترفَّع المستعمر الفرنسي خلال حكمه لسورية عن فعلها. لقد واجههم في حماة دفاعًا عن الجامع الذي حاولوا هدمه، وتصدّىٰ لهم في السبعينيات عندما أصدروا دستورًا يخالف الدساتير السابقة في سورية [١]. وأخيرًا قرّروا قتله، واختاروا طريقةً تتناسب مع أخلاقهم، وأخلاق آبائهم وأجدادهم، الذين جُبلوا علىٰ الغدر والخيانة والنّفاق.

فعندما كان الشيخ مروان حديد سجينًا، يُعالج في المستشفىٰ العسكري في (دوما) أعطاه الأطباء حقنةً سامةً في عنقه، وأصبح بعد هذه الحقنة لا يستطيع تناول الطعام. ثم بدأ وزنه ينقص حتىٰ تحوّل إلىٰ شبح. وعندما زاره أهله كان يشير إلىٰ هذه الحقنة، لأنه

(١) ليس هذا تزكيةً لتلك الدساتير، فكلّها فُصّلت علىٰ مقدار الحاكم أو الحزب. لكن دستور حافظ الأسد صيغ ليضع كل السلطات في يديه كأنه ملك متوَّج، يحكم ولا معقّب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل. علمًا أن مروان حديد –رحمه الله– لم يكن متحمّسًا لهذه المعركة من أجل الدستور. ولكن أنظمة الحكم الدكتاتورية الشمولية –ومنها نظام حافظ الأسد– إذا تصدّىٰ لها إسلامي تفتعل معركةً مع كل الإسلاميين، وتفتري علىٰ الجميع بلا خُلق ولا رحمة.

لا يستطيع الكلام، وبعد أيام لقي وجه ربه. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

أدرك طلاب الشيخ وإخوانه، أن الذين يحكمون سورية عصابة من قُطّاع الطرق، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمّةً، ولا بدَّ من مواجهة هذه العصابة بالطريقة نفسها، التي يواجهون بها الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ.

وفي نهاية السبعينات حمل إخوان الشيخ مروان وطلابه السلاح ليثأروا لشيخهم، وكان أول قتلاهم مدير مستشفىٰ دوما الذي أشرف علىٰ قتل الشيخ مروان، وجُنَّ رئيس النظام النصيري حافظ الأسد، لأن هذا الطبيب كان من أقرب الناس إلىٰ قلبه.

ثم توالت ضربات الطليعة لرءوس النظام النصيري الحاكم، وكانت ضرباتهم في الصميم. وبقي النظام فترةً غير قليلة، وهو يظن أن بعث (العفالقة) في بغداد وراء هذه الضربات، التي جعلته مذعورًا خائفًا، وكانت تصدر عنه تصريحات متناقضةً.

وعندما وصلت أجهزة أمن النظام النصيري إلىٰ رأس الخيط، وبدأت تقتاد الطليعة، ومجموعة بعد مجموعة إلىٰ حبل المشنقة، كانوا قمة في الصبر والشجاعة والاستهانة بالموت. وكان لسان حالهم يردّد قول الصحابي خبيب بن عدي ﷺ:

ولســـت أبـالي حين أُقتـل مســلمًـا ... علىٰ أيّ جنب كان في الله مصــرعي

وتأكّد عندي أن نفرًا من العاملين في أجهزة الأمن –وفي مقدمتهم الضباط الذين وُلدوا من آباء وأمهات مسلمين –أُعجبوا غاية الإعجاب بصمود هؤلاء الشباب وجرأتهم، وما زال هذا الإعجاب يزداد حتىٰ اتخذوا موقفًا معاديًا للنظام، لأنهم تيقّنوا أن المعركة هي بين الكفر والإسلام، وليست بين الرجعية والتقدمية، أو بين العروبة وأعدائها كما يشيع النظام.

تابعت أخبار شباب الطليعة، الذين لا أعرف أحدًا منهم، لأنني غادرت سورية، وهم لا يزالون أطفالاً. ثم عزمت علىٰ الالتقاء بهم، ومعرفة ما عندهم، وتقديم النصح لهم، لا سيما وقد تألّبت عليهم قوىٰ الكفر والنّفاق داخل سورية. وجاءني الخبر أن مندوبهم في الخارج مقيم في بغداد فحدّدت موعداً معه، وتجشمت صعوبات السفر إلىٰ بلد ما كنت أفكر في دخوله في ظل حكم بعث (العفالقة)، لولا وجود ممثل الطليعة وإخوانه فيه.

وفي بغداد وجدت ممثل الطليعة يقيم مع عائلته في فندق فخم، وقد أعطته حكومة (صدام حسين) جناحًا خاصًّا له ولعائلته ومساعده -وهو أحد أقربائه-، وكانت هذه الصدمة الأولىٰ التي واجهتها، فكيف يريد هؤلاء أن يحرّروا سورية من البعث النصيري، وهم يتعاونون مع بعث العفالقة في بغداد؟!

والصدمة الثانية: أني وجدت مسئول الطليعة في الخارج حليقًا، فتساءلت: إذا كانت ظروف هؤلاء الإخوة تقتضي حلق لحاهم في سورية، فلماذا يحلقون لحاهم في بغداد، لا سيما وهو يقول لي: ليس في إقامتنا هنا أي تقييد لحريتنا؟!

والصدمة الثالثة: أني وجدت الأخ ونائبه يشربان الدخان، فماذا بقي إذن، وهل هذه صفات المجاهدين الذين يرجون نصر الله تعالىٰ؟!

أقمت عند الأخ يومين، وسألته أسئلةً كثيرةً، وفهمت منه أن صلاته بالطليعة بدأت عندما طرح أحد أصدقائه علىٰ قيادة الطليعة فكرة اختياره ممثلاً لها في الخارج، وفضلاً عن ذلك فهو لم يطلق رصاصةً واحدةً ضدّ النظام!!

كان مما أخبرني به الأخ أن عدد الطليعة في حلب وحدها يبلغ عشرة آلاف مقاتل، وهم يسيّطرون علىٰ حلب سيطرةً كاملةً.. أما عدد أفراد الطليعة في بقية المحافظات، فلا يعرف

عنه شيئًا. وتبيّن لي فيما بعد أن الرقم الذي ذكره عن أفراد الطليعة في حلب ليس صحيحًا، وسأله فيما بعد أحد الذين سمعوا مني هذه الرواية، فزعم أن أحد المسئولين عن الطليعة قال له ذلك، ثم أدرك أنه كان مخطئًا.

وسألني عن إمكانية دخولي إلىٰ سورية، لتستفيد قيادتهم مني، فقلت له: إن الأرقام التي ذكرتها، والتي بنيتَ عليها تفاؤلك تلزمك أنت، لأنك مقتنع بصحتها، ولا تلزمني، لأنني أعتقد أن الجماعات الإسلامية مجتمعة لا تستطيع تجنيد أكثر من ألفي مقاتل، ولن يسقط النظام النصيري بمثل هذا العدد.

إن معلوماتي تؤكد أننا –معشر الإسلاميين في سورية– عاجزون عن إسقاط النظام، بقيت ملتزمًا بهذه القناعات أثناء مذبحة حماة، وكنت غير مقتنع أيضًا بالنفير العام، وأسطول السيارات الذي أُعدّ لهذا الغرض.. وعندما كنت أقول مثل هذا القول كان المتسرّعون والمزايدون يتهمونني بأنني ضدّ الجهاد، ومعاذ الله أن أكون كذلك، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، ومن جحده وتبنّىٰ موقفًامعاديًا له كفر وارتدّ عن الإسلام.

ولكن الدعاة ومعظم الجماعات تمرّ عليهم فترات لا يفكّرون فيها إلا بعواطفهم.

سألت مندوب الطليعة عن إقامته في بغداد، وعن تعاونه مع نظام بعث (العفالقة)، فردّ عليَّ ردودًا غير مقنعة، كقوله: هم لا يتدخّلون بأمورنا الخاصة.. وقوله: غيرنا من الإسلاميين السوريين يقيمون هنا، وبينهم وبين بعث العراق تعاونًا وثيقًا جدًّا.

الشاهد من هذا العرض أنني عدت من بغداد وقد كوّنتُ انطباعًا سلبيًّا عن الطليعة ونظامها، وقدرتها علىٰ تنظيم وضبط عناصرها، وأيقنت أنه من اليسير جدًّا اختراق مثل هذه التنظيمات، وأحسب أن مندوبهم الذي التقيت به هو أحد العناصر الذين اخترقوا

هذا التنظيم. وجاءت الأيام لتؤكد صحة قولي. لقد اجتمع فيما بعد مع رئيس المخابرات السورية، ودخل معه نفر من أصحابه، وبعضهم لم يتردّد في التعاون مع بعث النصيرية، كما كانوا يتعاونون مع بعث العفالقة في بغداد.

تكرّرت لقاءاتي بمن تبقىٰ من قيادة الطليعة علىٰ قيد الحياة، ومنهم الأخ عدنان عقله رحمه الله حيًّا كان أو ميتًا، وقد وجدت عنده براءةً وصراحةً، ورغبةً لا تُوصف في الجهاد والموت في سبيل الله، ولكن قدرته وقدرة مساعديه علىٰ التنظيم وقبول الملتزمين ضعيفة جدًّا. فقد يقبلون بين صفوفهم من لا يصلح للالتزام، وهذا الذي لا يصلح للالتزام قد يصبح خلال أيام أحد قادة الطليعة، وقد يُعزل بعد أشهر وهكذا. وأخطر الاختراقات التي تعرّضت لها صفوف الطليعة ما يلي:

- هرب من سورية إلىٰ بغداد رجل يكنّىٰ بأبي عبد الله الجسري، ومن بغداد انتقل إلىٰ عمان، وقد شك به كثير من الدعاة السوريين، غير أنه خلال فترة قصيرة أصبح أحد قادة الطليعة، وأقنعهم أن عنده مجموعةً من المجاهدين في شمالي سورية، وأظهر لهم الرسائل التي يتلقّاها منهم، ويطلبون منه مسئولين من الطليعة ليحرّكوا العمليات الجهادية التي ضعُف شأنها في الفترة الأخيرة، وخاصة بعد مجزرة حماة. وكان أبو عبد الله يعلم أن مثل هذا المطلب تنتظره الطليعة بصبر نافد، وسوف تتفاعل معه دون أيّ حذر، لا سيما وأن صاحب هذا الاقتراح من أهل الحلّ والعقد عندهم.

أقنع الأخ عدنان عقله مساعديه بهذا الاقتراح، وبدأوا يستعدّون لتنفيذه. وكان أبو عبد الله يرسل التقرير تلو التقرير إلىٰ المخابرات، ويوهمهم بأنه يرسلها لأصحابه المجاهدين في شمالي سورية.

وأرسلت الطليعة المجموعة الأولىٰ، وكان علىٰ رأسها أحد قادة الطليعة ويكنّىٰ بأبي الخير. وفي المكان المحدّد وجدوا كمينًا من المخابرات، اعتقلوه وساقوه إلىٰ السجن، وطلبوا منه أن يكتب رسالةً بخطّ يده إلىٰ أصحابه في عمان، وفعلاً كتب رسالةً يخبرهم أنه وصل سالمًا معافىٰ، ووجد إخوانه المجاهدين، وتدارس معهم وسائل تنشيط الجهاد، وينتظر مجموعةً أخرىٰ من الطليعة، فرح عدنان ومن حوله بهذه الرسالة التي كُتبت بخطّ يد أبي الخير، وتوقّعوا أن ينطلق الجهاد كما كان، وأرسلوا المجموعة الثانية، وتوالت المجموعات، وكان آخرها مجموعة يقودها عدنان عقلة.

وكان يحدث لكل مجموعة ما حدث للمجموعة الأولىٰ، ينتظرهم في المكان المحدّد عناصر من المخابرات، ويسوقونهم إلىٰ السجن، ثم يجبرون رئيس المجموعة علىٰ كتابة رسالة للطليعة في عمان، يقولون فيها: وجدنا إخواننا المجاهدين ينتظروننا، وجميع إخواننا الذين سبقونا بخير وعافية، ويطلبون في النهاية إرسال مجموعة أخرىٰ.

وفاتني الإشارة إلىٰ أن الشكوك كثرت بعد وصول المجموعة الأولىٰ بقيادة أبي الخير، وانقسمت الطليعة قسمين: القسم الأول غير مصدّق لمضمون هذه الرسائل. ويقولون: إنها كُتبت بضغط من المخابرات وتحت وطأة التعذيب. وقسم مطمئن لها، واثق من نجاح قيادة الطليعة، ومن أجل حسم هذا الاختلاف، قرّرت الطليعة إرسال مندوب منهم يلتقي بأبي الخير، ويطمئن علىٰ سلامة الخطة.

اجتمع المندوب بأبي الخير، وكان هناك رجل ملثم يرافقه، وطلب المندوب من أبي الخير أن يتحدّث معه علىٰ انفراد، فرفض أبو الخير، وقال له: هذا مرافق لي أثق به، فتحدّث أمامه ولا تخش شيئًا. فسأل المندوب أبا الخير عن أحواله وأحوال إخوانه، فقال

أبو الخير: كلّ شيء علىٰ ما يرام. وانتظر المندوب إشارةً من أبي الخير غير أن الأخير لم يقل له إلا كلّ ما يطمئن.

وعاد المندوب إلىٰ عمان، وحدّث إخوانه بكل ما رآه فازداد الطرف الأول شكًّا وريبةً، وازداد الطرف الثاني ثقةً وتصديقًا.

وعندما اعتُقل عدنان عقلة ومرافقوه كتب رسالةً لإخوانه في عمان، يخبرهم فيها أنه بخير، ويبشرهم بأنهم سيسمعون أخبارًا سارةً عن الجهاد. غير أن الشك قطع باليقين عندما جاءت الأخبار، تؤكد أن عدنان عقلة وجميع المجموعات التي دخلت سورية، تتعرّض لأشدّ أنواع التعذيب في سجون ومعتقلات البعث النصيري.

خشي أبو عبد الله الجسري علىٰ نفسه لأنه أصبح مهدّدًا بالقتل، فغادر عمان فجأةً إلىٰ دمشق. وهناك استقبله سادته النصيريون بحفاوة بالغة، وتبيّن أنه ضابط في المخابرات النصيرية، فرفّع وأُغدقت عليه الهبات والأعطيات، لأنه نجح في اختراق الطليعة، مستغلاً الفوضىٰ التنظيمية عند هذه المجموعة.

هذه قصة اختراق الطليعة، وبقي السؤال التالي الذي يفرض نفسه بإلحاح:

كيف قبلت الطليعة أبا عبد الله في صفوفها، وهي التي لم يكن لها به أدنىٰ صلة. وظروف وأحوال الطليعة كانت تحتّم عليها وجوب التريّث، وعدم التسرّع في اتخاذ مثل هذا القرار؟!

وإذا جاز للطليعة قبول أبي عبد الله في صفوفها، مع أنها لا تعرفه من قبل، وكانت تحوم حوله الشبهات، لأنه غير معروف عند الجماعات كلها، أقول: إذا جاز لهم ذلك، فكيف

جوّزوا لأنفسهم أن يكون هذا المجهول أحد القياديين عندهم، ولم يمض علىٰ انضمامه للطليعة إلا أيام معدودات؟! [١].

(١) قالت مصادر الطليعة بعد فرار أبي عبد الله الجسري (نسبةً إلىٰ مدينته جسر الشغور في شمال سورية) واسمه مجاهد دندش: كان رجل المخابرات يكثر من قراءة القرآن، ويصلي والناس نيام، وكان يوقظ زملاءه الذين يسكنون معه لصلاة قيام الليل، وهذا السلوك كان من أهم الأسباب التي جعلت عدنان عقلة وآخرين غيره يطمئنون إليه، فلينتبه العاملون في الحقل الإسلامي إلىٰ هذه الثغرة التي ينفذ من خلالها الجواسيس!!

المثال الثاني:
عبد الناصر ومصائب ثورة يوليو

ثورة يوليو أخطر ثغرة في العصر الحديث، إذ استطاع جمال عبد الناصر من خلال هذه الثغرة الالتفاف حول جماعة الإخوان المسلمين، وضربها من الداخل مستخدمًا أخطر جهاز فيها -النظام الخاص- ورئيسه عبد الرحمن السندي، ونائب المرشد العام السابق الشيخ أحمد حسن الباقوري[1]، وغيرهما من الذين خُدعوا بجمال عبد الناصر، فراحوا يتآمرون معه ضدّ إخوانهم ورفاق دربهم من الإخوان المسلمين، وينتظرون منه المناصب والمكافآت، وصدّقوا مقولته التي كان يُكثر من ترادها -وهو من أكذب خلق الله-: إنني أمين علىٰ المبادئ التي كان يردّدها حسن البنا، ومن أجلها قامت ثورة يوليو ١٩٥٢م، وخلافي ليس مع مبادئ الإخوان، وإنما خلافي مع قيادة الهضيبي التي انحرفت عن خطّ الشيخ حسن البنا.

إن خطر عبد الناصر تجاوز حدود مصر، فقد حكم سورية واليمن فترةً من الزمن، والبلاد التي لم يحكمها، كان له فيها وجود فعَّال، يقلق الأنشطة الإسلامية. ففي لبنان مثلاً، لا يأمن كبار الدعاة علىٰ أنفسهم فيها، لأن قُطّاع الطرق الذين يُؤمرون بأوامر السفارة المصرية، لا يخلو منهم شارع أو حيّ من أحياء لبنان.

وزاد الطين بلةً تأميم قناة السويس، والبطولة الزائفة التي صنعتها له الولايات المتحدة الأمريكية، عندما أرغمت التحالف الثلاثي -إسرائيل وفرنسا وبريطانيا- علىٰ

---

(١) كلفه المرشد العام الأستاذ حسن البنا بهذه المهمة، قبل اغتياله بأشهر قليلة، وانتهىٰ هذا التكليف بعد اختيار الإخوان لمرشدهم الجديد الأستاذ حسن الهضيبي.

الانسحاب من الأراضي المصرية، فأصبح في البلدان العربية مثل أتاتورك بعد الانتصارات التي صُنعت له. وبعد حرب السويس برزت طموحات عبد الناصر، ورفع شعار: الوحدة، والحرية، والاشتراكية.

لا أستطيع في مثل هذا البحث تقديم دراسة كاملة عن مصائب ثورة يوليو، والدور الذي لعبه جمال عبد الناصر، كما لا أستطيع الاستطراد في ذكر التحليلات والتعليقات المناسبة، لأنني لو فعلت ذلك لخرجت عن موضوعية البحث الذي اخترته، ولهذا سوف أختار من مصائب ثورة يوليو الأمثلة الآتية:

الضباط الأحرار (١):

لما كان صاحب القرار في الضباط الأحرار هو جمال عبد الناصر، فمن شاء رفعه، ومن شاء طرده، وفرض عليه الإقامة البرية في بيته، لهذا سأتحدّث عنه، وقد أستطرد فأذكر نماذج من تصرّفات الضباط الأحرار وأفعالهم.

انضمّ جمال عبد الناصر إلىٰ الإخوان المسلمين عام ١٩٤٢م بدعوة من صديقه الضابط عبد المنعم عبد الرؤوف الذي كان قد سبقه إلىٰ الانتظام في جماعة الإخوان المسلمين.

وما زال عبد المنعم عبد الرؤوف يعمل في صفوف الضباط، حتىٰ أصبح عدد

(١) لا أرىٰ الوقوف عند مصدر هذه التسمية، وهل هم أطلقوها علىٰ أنفسهم، أو أطلقها عليهم الصباغ محمود لبيب رحمه الله؟!، والذي أريد قوله: إن هذه التسمية لا تنطبق عليهم، لأنهم عبيد لشهواتهم، ومن أجل هذه الشهوات يستسهلون كلّ جريمة مهما كانت بشاعتها، ومن جهة ثانية فهم عبيد لعبد الناصر، والأخير عبد لأمريكان.

الملتزمين في عام ١٩٤٤م سبعةً، وهم: عبد المنعم عبد الرؤوف، جمال عبد الناصر، حسين أحمد حمودة، كمال الدين حسين، سعد توفيق، صلاح الدين خلفة، خالد محيي الدين.

وكان الشيخ حسن البنا قد اختار الصباغ محمد لبيب -وكيل المرشد العام- مسئولاً عن التنظيم العسكري، والصباغ لبيب كان ضابطًا في الجيش المصري عام ١٩١٤م- سلاح الهجّانة- مع الملازم صالح حرب، وانضمّا بقواتهما إلىٰ السنوسي عام ١٩١٥م، وفرّ إلىٰ تركيا بعد فشل الحملة السنوسية، وعندما سقطت الخلافة غادر تركيا، واستقر في ألمانيا حتىٰ عام ١٩٢٤م، فعاد إلىٰ مصر عندما صدر عفو عام عن كلّ المنفيّين والمسجونين السياسيّين، وانتظم مع الشيخ حسن البنا عندما أعلن الأخير تأسيس جماعة الإخوان المسلمين.

ثم بدأ عدد الضباط المنضمّين إلىٰ الإخوان المسلمين يزداد، حسن إبراهيم مصطفىٰ، ومصطفىٰ بهجت، معروف الحضري، عبد الرحمن محمد أمين، مجدي حسنين، إبراهيم الطحاوي، فؤاد جاسر، جمال ربيع، أحمد حمدي عبيد، محمد أمين هويدي، محمد كمال محجوب، وجيه خليل، وحيد جودة رمضان.

وفي عام ١٩٤٦م أعطىٰ ضباط الدفعة الأولىٰ -عبد المنعم عبد الرؤوف ومعه الضباط الستة- البيعة للإخوان، وأصبح مسئولاً عنهم عبد الرحمن السندي رئيس النظام الخاص.

ومن الذين انضمّوا إلىٰ الإخوان أيضًا: عبد اللطيف البغدادي، حمدي أبو زيد، عبد الحكيم عامر، صلاح سالم، حسين الشافعي، أمين العربي، محمد الليثي.

وفي عام ١٩٤٦ و ١٩٤٧م كان الضباط السبعة يدربّون شباب الإخوان علىٰ استعمال الأسلحة، وهذا التدريب أتاح لجمال عبد الناصر جمع معلومات واسعة عن الجماعة، وفي عام ١٩٤٨م انشغل الإخوان والضباط الذين يعملون معهم في حرب فلسطين، وفي عام ١٩٤٩م كان الإخوان في السجون، وعبد الناصر محاصرًا في الفالوجة.

وفي عام ١٩٥٠م اتصل جمال عبد الناصر بالإخوان لاستئناف النشاط الذي انقطع، ولم تكن عودته خالصةً لوجه الله، كما أنه لم يكن مقتنعًا بمبادئ الإخوان، وإنما كان يستغلّهم من أجل تحقيق أطماع شخصية، وهذه هي أدلتي علىٰ ذلك:

-لم يكن عبد الناصر متديّنًا، وكذلك حال زملائه الضباط الأحرار، يقول عبد المنعم عبد الرؤوف: (قلت للبكباكشي أ.ج [1] جمال عبد الناصر: إن عبد الحكيم عامر لا يصلح لأن يكون ضمن أي تنظيم في الجيش لتعاطيه الحشيش، فأجابني -أي جمال-: إنني لو طلبت من عبد الحكيم روحه لأعطاها لي). وإذن: فالهدف والمنطلق عند عبد الناصر عبادة شخصه وتقديسه، وليس عبادة الله الواحد الأحد. واستمر عبد الناصر يقيس الأمور بهذا المقياس حتىٰ أهلكه الله.

- ومن جهة أخرىٰ، فكثيرًا ما كان عبد الناصر يقول للإخوان عن زملائه الضباط: جئت بهم من الخمارات وغرز الحشيش ومجالس تحضير الأرواح.

- كان عدد المشهور عنهم أنهم يصلّون اثنين: كمال الدين حسين، وحسين الشافعي. ومعظم الضباط الذين انتسبوا للإخوان كانوا لا يصلّون، فما بالك ببقية فرائض الإسلام.

- كانت القناعة السائدة في ذلك الوقت قبول الوطنيين في الحركة الإسلامية وخاصةً

(١) اختصار قوله: أركان حرب.

إذا كانوا علىٰ استعداد لمقاومة الاحتلال الإنجليزي، ولو لم يكونوا من المصلّين، وحجيتهم في ذلك أن نقبلهم، وسوف تستقيم أحوالهم بعد أن يروا نماذج صالحةً من قادة الحركة الإسلامية.

- يقول صلاح شادي: إن محمود لبيب كان معجبًا بجمال عبد الناصر، يثق به أشدّ الثقة، ولهذا فقد أعطاه في مرض موته أسماء ضباط الإخوان والأموال التي تخصّهم، وهذا يعني أن محمود لبيب ارتضاه مسئولاً عن تنظيم الجماعة العكسري.

- فاتتني الإشارة إلىٰ أن انضمام عبد الحكيم عامر في صفوف الإخوان كان في عام ١٩٤٤م، وكان في هذا الوقت معروفًا عنه شرب الحشيش، وكان عبد الناصر لا يجد في ذلك أي غضاضة.

- كان عبد الناصر يلحّ علىٰ محمود لبيب بضرورة تنظيم قاعدة عريضة من الضباط، ويكفي لقبول الضابط أن يكون شجاعًا، ويحافظ علىٰ السرّية. ويُنقل عن عبد المنعم أن عبد الناصر قال له في شهر سبتمبر ١٩٤٩م: (لا أستطيع تجميع الضباط حول مبادئ جماعة الإخوان المسلمين، واتّباع هذا الأسلوب المتزمّت في اختيارهم، المتمثّل في أن يُشترط في الضابط الذين يُراد ضمّه للتنظيم اجتناب الخمر والميسر، والنساء الساقطات، وضرورة المواظبة علىٰ الصلاة، ومحبة الجنود له، ومحبة الجنود له، والتزام النساء من أهله بالزي الإسلاميّ، والطاعة لمكتب الإرشاد).

- يقول صلاح شادي: إن محمود لبيب حدّثه في عام ١٩٤٦م أن قصر دعوة الإخوان في الجيش علىٰ الضباط الذين تحقّق ولاؤهم للجماعة فقط، يُفقِد الحركة قاعدةً عريضةً من الضباط الوطنيين، إذا ظلوا بعيدًا عن التجمّع الحركي للإخوان في الجيش.

- ويقول أيضًا -أي صلاح شادي-: استغلّ عبد الناصر تصريح محمود لبيب، وأخذ يعمل منذ عام ١٩٤٦م علىٰ تحويل ولاء الضباط له من وراء ظهر محمود لبيب [١].

- ويعلّق صلاح شادي علىٰ هذه الظاهرة فيقول: (ومن هنا نستطيع إدراك حقيقة، ربما غابت عنا في غفلة النشوة التي صاحبت حركة الإخوان المسلمين داخل الجيش، فكان الكمّ عندنا أغلىٰ من الكيف..!، وأصبح الإسلام في نظر ضباط الحركة حُلَّة تُرْتَدىٰ وتُخْلَع عند اللزوم، وهذا اللزوم قد يكون فكرًا برّاقًا لا أصل له، أو مصلحةً متصوَّرةً، أو سلطانًا خادعًا) [٢].

وبلغ الاستهتار عند عبد الناصر منتهاه عندما طلب من المسئول عنه -الصاغ محمود لبيب- تنظيم الضباط الذين تتوفّر فيهم الصفات الآتية:

- حب الوطن، وتقديسه، والدفاع عنه.

- مناوأة المستعمر الإنكليزي الدخيل، وإجباره علىٰ مغادرة مصر.

- القدرة علىٰ كتم الأسرار، وعدم البوح بها.

- الشجاعة والإقدام.

- محاربة فساد فاروق وأعوانه.

واستنكر عبد الناصر الشروط التي يشترطها الإخوان في العضو الملتزم، ومن أهمها:

- ضرورة المواظبة علىٰ الصلاة.

---

(١) انظر صفحات من التاريخ، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) المصدر نفسه ص١٣٤.

- التزام أهل الضباط بالزيّ الإسلاميّ.

- الطاعة لمكتب الإرشاد.

- اجتناب الخمر، والميسر، والنساء الساقطات.

اعترض الصاغ محمود لبيب علىٰ هذه الشروط، ورفضها -كما يقول عبد المنعم عبد الرؤوف في مذكراته-، ولكنه استجاب في النهاية لمطالب عبد الناصر، كما يقول صلاح شادي في مذكراته: (صفحات من التاريخ)، وليراجعْ من شاء الصفحات من ١١٦ إلىٰ ١٣٠ من كتاب صلاح شادي الآنف الذكر. ومما قال صلاح شادي لمحمود لبيب، بعد أن أخبره الأخير بقبوله لشروط عبد الناصر: (..وفي الواقع لم يحضرني في الردّ علىٰ اقتراحه هذا إلا محذور واحد هو أن يدخل إلىٰ تشكيل الإخوان (بالصورة المقترحة) الضباط الذين يتجسّسون علىٰ الحركة. فأمّن علىٰ قولي، وطمأن خاطري. بأن الذين يُختارون للإنضمام لا بدَّ أن تكون لهم مواقف رجولة مشهودةً في الجيش قبل ترشيحهم لهذا الانضمام) [1].

لا أدري هل كان عبد الناصر مسلمًا، وهو يشترط هذه الشروط؟! وكيف نطلب من ضباط فاسدين: يشربون الخمر، ويلعبون الميسر، ويخادنون الساقطات، أن يحاربوا فساد فاروق وطغمته؟!

ومهما بلغ هؤلاء الضباط من الرجولة والشجاعة، بل والنخوة والمروءة، فلن يبلغوا مستوىٰ: أبي جهل، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وغيرهم من صناديد قريش،

(١) صفحات من التاريخ، صلاح شادي، ص١٢٣.

الذين حاربهم رسول الله ﷺ وأصحابه في بدر، وأُحُد، وحُنين.

وكيف ينصر الله تنظيمًا عسكريًّا لا يقيم معظم أعضائه أيّ وزن للصلاة وغيرها من أركان الإسلام، أجل، من المستحيل أن ينتصر تنظيم إسلامي يخالف سُنن الله في النصر؟! (١)

ولماذا لا نوجّه أصابع الاتهام لمن يشترط هذه الشروط، ونفتح ملفه، ونطلب شهادة أقرانه فيه، ونقول له: لقد طرقت باب جماعتنا خطأً، فاذهب لمن لا يجدون أيّ حرج في شرب الخمر، وفي البحث عن الساقطات واطرق أبوابهم؟!

ولماذا نتوقّع أن هؤلاء الفاسدين سوف تستقيم أمورهم عندما نضمّهم في الجماعة، ولا نتوقّع أنهم سوف ينشرون فسادهم داخل التنظيم، ويكونون وكرًا من أوكار الضِّرار؟!

وهذا الذي حدث؟!

رحم الله مرشد الإخوان الثاني الأستاذ حسن الهضيبي، فقد كان ينظر لحركة ضباط يوليو نظرة شك وارتياب، وتأخّر في تأييدهم بعد نجاح انقلابهم، واتهمه عبد الناصر بالجُبن بسبب تأخّره، وكذب عبد الناصر في اتهامه، فالرجل الذي صبر علىٰ السجون، وما أدراك ما سجون عبد الناصر، وما فيها من قهر وظلم وإجرام، لا يجبن في اتخاذ أيّ موقف يُرضي به ربّه.

(وأثناء لقاء بين حسن الهضيبي وجمال عبد الناصر في ٣٠ يوليو ١٩٥٢م، أي بعد الانقلاب بسبعة أيام، استغرب الهضيبي ردود عبد الناصر عليه، فالتفت إلىٰ حسن

(١) ليراجعْ من يشاء كتاب: (قل هو من عند أنفسكم) للمؤلف.

العشماوي، وقال له بتعجب: ألم تتّفقوا علىٰ المشاركة يا حسن؟ فأجاب: بلىٰ اتفقنا، وهنا ظهر علىٰ وجه المرشد عدم الارتياح أو الاطمئنان، لدرجة أنه لم يشارك في الحديث تقريبًا حتىٰ نهاية الجلسة، التي دامت حوالي الساعتين. وأبدىٰ المرشد بعد خروج عبد الناصر عدم اطمئنانه إلىٰ اتجاه هذه الحركة، وعدم ثقته بالقائمين عليها، لما بدا من تنصّل المسئول الأول الفعلي من التزاماته ووعوده، التنصّل الذي بلغ حدّ الكذب، وذلك من أول خطوة في طريق الحركة) [١].

وقال مرةً أخرىٰ لمساعديه بعد لقاء مع عبد الناصر: (الراجل ده ما فيهوش خير، ويجب الاحتراس منه) [٢]، وكان هذا القول بعد انقلاب يوليو بزمن قصير جدًّا.

وكانت مواقف: حسن العشماوي، صلاح شادي، عبد القادر حلمي، فريد عبد الخالق، صالح أبو رقيق، وغيرهم مخالفةً لموقف الهضيبي، فالأستاذ حسن العشماوي كان مقرّبًا عند عبد الناصر، واستمر الأخير يرسله كرسول، وممثل شخصي له إلىٰ عدد من البلدان العربية، في الوقت الذي بدأت فيه العلاقات تتوتّر بين عبد الناصر والإخوان.

ومن أجل إنقاذ عبد الناصر من ورطته بعد حريق القاهرة، بنىٰ حسن العشماوي مستودعًا تحت الأرض في قرية أبيه، ونقل الأسلحة المخزّنة عند عبد الناصر إلىٰ هذا المستودع. وعند الاعتقالات الأولىٰ للإخوان اتهمهم عبد الناصر بامتلاك مستودعات سرّيةً للأسلحة. ومن الأدلة علىٰ ذلك مستودع حسن العشماوي. وأدرك عشماوي بعد هذه الواقعة بأن الذئب أفضل من صديقه عبد الناصر.

---

(١) هذه رواية عبد القادر حلمي ساقها صلاح شادي في كتابه: (صفحات من التاريخ)، ص: ١٨٢.

(٢) الصامتون يتكلمون، سامي جوهر، ص٤٢.

قال حسن عشماوي في مذكراته: كان جمال عبد الناصر عضوًا في جماعة الإخوان، وكان اسمه الحركي في أوساط من يتعامل معهم (زغلول عبد القادر)، كما كان عضوًا في الحزب الشيوعي -حدتو- وكان اسمه الحركي عندهم (موريس).

قلت: وليس من المتعذر أن يمثل عبد الناصر دور "موريس"، فالتنظيم عنده لا علاقة له بالصلاة والحج والزكاة، ولن يُحرج إذا دخل وقت من أوقات الصلاة، لأنه لن يستجيب إلىٰ صوت المؤذن، وينهض لتأدية حق الله عليه، بل سوف يستمر في اللهو والعبث والفسوق والعصيان، شأنه في ذلك شأن الرفاق، وربما كان موريس النصراني لا يلعب الميسر، ولا يبحث عن الساقطات من النساء!!

وظل عبد الناصر يمثل هذا الدور المتناقض بعد أن تولىٰ الحكم، فتارةً كان يبكي عند قبر حسن البنا، ويعاهده علىٰ المضي في الطريق الذي انتهجه، وتارةً كان يمدّ يده للشيوعيين، ويفتح أمامهم أبواب الاتحاد الاشتراكي، وأبواب أجهزة الإعلام، وبقية مرافق الدولة.

والحقيقة أن عبد الناصر لا يؤمن بأهداف الإسلاميين وغاياتهم، ولا بأهداف الشيوعيين وغاياتهم، فهدفه الذي لا يحيد عنه تقديس ذاته، والبطش بكل من يرفض عبادة هذه الذات.

عودة عبد الناصر إلىٰ تنظيم الإخوان:

يقول صلاح شادي في مذكراته: "وفي نهاية سنة ١٩٥٠م جاءني اليوزباشي عبد الفتاح غنيم- وكان من الإخوان- وأبلغني رغبة فريق من ضباط الجيش المنتمين إلىٰ الإخوان في استئناف الاتصال بعد انقطاعه في عهد النقراشي عام ١٩٤٨م.

وبناءً علىٰ هذا الاتصال، التقىٰ صلاح شادي بصلاح سالم، واتفقا علىٰ موعد للقاء الأخ المسئول عن الضباط بصلاح شادي. وكان هذا أول لقاء بين عبد الناصر وشادي، وكان اللقاء في مكتب المحامي حسن العشماوي.

واتفق الاثنان في هذا اللقاء علىٰ استئناف النشاط، وطلب عبد الناصر برنامجًا ثقافيًّا، فكلّف شادي حسن العشماوي بهذه المهمة، وقام الأخير بها. وأشرف الأخ الضابط رشاد المنيسي علىٰ تنفيذ هذا البرنامج.. ثم راح صلاح شادي يتحدّث في عدّة صفحات من مذكراته عن تضليل عبد الناصر للإخوان..) (١).

والذي كان يعلمه صلاح شادي عن عبد الناصر في هذه الفترة ما يأتي:

- عدم اطمئنان عبد المنعم عبد الرؤوف إلىٰ عبد الناصر، ولم يسأل شادي عبد المنعم عن وجهة نظره في هذه المسألة.

- اقتراح عبد الناصر علىٰ محمود لبيب الأعضاء في التنظيم، ولو كانوا لا يصلّون، بل ولو كانوا يشربون الخمر، ويلعبون الميسر، ويصاحبون الساقطات من النساء.

ونُفِّذَ هذا الاقتراح، يقول صلاح شادي: (وكان من الطبيعي أن يفزع أصحاب الخُلق من ضباط الإخوان من هذا الخليط الجديد، وعندما اعترض كمال الدين حسين أمام عبد الناصر أجابه: "كنت مضّطرًا لجمع أيّ عدد من المندفعين والمغامرين، أحضرهم من غرز الحشيش والبارات) (٢).

---

(١) صفحات من التاريخ، حركة الجيش وعبد الناصر والإخوان من ١١٦ إلىٰ ١٣٠ باختصار وتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق: ص١٢٦.

ومما يجدر ذكره أن تنظيم هذا الخليط بدأ في عام ١٩٤٦م.

وخلال فترة انقطاع عبد الناصر وقعت أحداث جسام، وتبدّلت مواقف كثيرة، ومن هذه الأحداث، حرب فلسطين، واغتيال المرشد العام الشيخ حسن البنا رحمه الله، واعتقالات الإخوان أثناء عودتهم من حرب فلسطين.

وأمام هذه الأحداث كان من المنتظر أن يجمع صلاح شادي معلومات عن جمال عبد الناصر، قبل أن يقرّر عودته إلىٰ تنظيم الإخوان. ولو عاد شادي إلىٰ زملاء عبد الناصر من ضباط الإخوان لسمع منهم العجب العجاب. ومن الأمثلة علىٰ ذلك أن الضابط معروف الحضري رحمه الله، كان يحتفظ بالخطاب الذي أرسله إليه جمال عبد الناصر، وحمل الخطاب ضابط يهودي، وتضمّن الخطاب تطمينه بقرب فك أسره. والحضري كان أسيرًا في يد اليهود، وعبد الناصر كان محاصرًا في الفالوجا [1]. وقال ضباط آخرون من زملاء عبد الناصر في حصار الفالوجا: إنه كان يغادر مكان إقامته في وقت متأخّر من الليل، ويسهر مع الضباط اليهود حتىٰ مطلع الفجر.

ومن بين الضباط اليهود الذين أقام معهم جمال عبد الناصر صلات قوية (إيغال آلون)، الذي أهلكه الله وهو نائب لرئيس وزراء إسرائيل. واستمرت هذه الصلات فيما بعد. ففي عام ١٩٥٠، وقع عليه اختيار المسئولين المصريين ليذهب إلىٰ تل أبيب، ويرشد اليهود إلىٰ أماكن دفن قتلاهم في الفالوجا وما حولها. وهناك -أي في تل أبيب- مكث عشرة أيام، واجتمع بأصدقائه الضباط اليهود الذين يعرفهم، واستعادوا الذكريات

(١) المصدر السابق، ص٣١٦.

الحميمة!! [١].

ولا بدَّ أن صلاح شادي كان يعرف شيئًا عن هذه الزيارة، لأنها لم تكن سرًّا من الأسرار، وإرسال عبد الناصر بالذات يثير شبهات لسابق صلته بهم.

ضرب الإخوان من الداخل:

استمر عبد الناصر يكيد للإخوان، كما استمرت صلاته مع صلاح شادي وحسن العشماوي بعد لقائه الأول مع شادي. وقبل قيام ثورة يوليو بأشهر أبعد عبد الناصر ضباط الإخوان عن مجلس قيادة انقلاب يوليو. ولم أجد مسوّغًا لاستمرار شادي وأصحابه في التعاون مع عبد الناصر بعد أن كشّر عن أنيابه، وأسفر عما يكنّه في صدره.

وكان واضحًا أن التنسيق بين مسئولي الإخوان كان مفقودًا في تعاملهم مع عبد الناصر، فقد كان من المفترض أن الصلة مع عبد الناصر قاصرة علىٰ صلاح شادي أو حسن العشماوي، أو مع ضابط أو ضابطين من ضباط الإخوان في الجيش، مثل عبد المنعم عبد الرؤوف أو غيره، ولكن كان الأمر أبعد من ذلك.

- فعبد الناصر بدأ رحلته مع الإخوان بلقاء مع حسن البنا، ثم أُحيل علىٰ عبد الرحمن السندي، فأخذ منه بيعةً، وعمل معه فترةً من الوقت. ولا بدَّ أن هذه الفترة أتاحت لعبد الناصر معرفة معلومات مهمة عن النظام الخاص.

- وعندما لم يجد عبد الناصر بُغيته عند السندي، أُحيل علىٰ الصاغ محمود لبيب، وكان موضع ثقته، فكلّفه بتفقّد أُسر الإخوان، وسمح له أن ينظّم الضباط الوطنيين، ولو

(١) صحيفة الشرق الأوسط العدد تاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٨٧م (عن كتاب الإخوان وعبد الناصر)، ص: ٣١٢.

كانوا لا يصلّون، ولا يتورّعون عن ارتكاب المنكرات. ثم كلّفه لبيب بتدريب شباب الإخوان، الذي خاضوا معركة فلسطين، ثم معركة قناة السويس. وأخيرًا أعطاه -أي لبيب- عند قرب منيته أسماء الإخوان العسكريين مع اشتراكاتهم المالية. وهذا يعني أنه اختاره مسئولاً عن العسكريين.

- اتصل عبد الناصر بصلاح شادي في نهاية عام ١٩٥٠م، وشادي أقام علاقات بينه وبين كلّ من: حسن العشماوي، فريد عبد الخالق، صالح أبو رقيق، عبد القادر حلمي. وعندما قامت ثورة يوليو كان عبد الناصر قد أقام علاقات خاصة مع معظم الإخوان المسئولين.

- بعد ثورة يوليو أفرج عبد الناصر عن عبد الرحمن السندي وزملائه المتهمين في قضية سيارة الجيب، وسمح لنجيب جويفل، -الذي كان قد فرَّ إلىٰ لبنان- بالعودة إلىٰ مصر، وأصدر عفوًا عنه، وأتاح له هذا العمل إقامة صلات معينة مع النظام الخاص.

- بعد تسلم الباقوري مقاليد وزارة الأوقاف، قرّب عبد الناصر إليه كلاً من: سيد سابق، البهي الخولي، محمد الغزالي، وغيرهم من شيوخ الأزهر المنتمين إلىٰ الإخوان.

عرف عبد الناصر عن طريق تشعّب صلاته نقاط الضعف داخل الإخوان، كما عرف كيف يخترق صفوف الجماعة.

الباقوري وزيرًا للأوقاف:

جرت مفاوضات لإشراك الإخوان في أول وزارة بعد الانقلاب يوليو، وعندما اتّضح للمرشد الهضيبي مراوغة عبد الناصر وغدره، اعتذر عن الاشتراك في هذه الوزارة. وفوجئ الإخوان باختيار أحمد حسن الباقوري وزيرًا للأوقاف، ومسارعته إلىٰ قبول هذا

المنصب، دون استشارة القيادة، مع أنه عضو في مكتب الإرشاد، وكان نائبًا للمرشد، وموضع ثقة البنا رحمه الله. وعندما خيَّره الهضيبي بين الإخوان والوزارة، اختار الوزارة دون تردّد. وقدّم استقالته إلىٰ الإخوان.

حاول الباقوري في مذكراته أن يصوّر أن مسألة اختياره كانت مصادفةً، وليس له يد فيما حدث. وقال عبد الناصر كلامًا مشابهًا لقول الباقوري. ولكن واقع الحال ومجريات الأحداث أثبتت أن الأمر دُبِّرَ بليلٍ، ولم يكن مصادفةً. وكان هذا أول اختراق للإخوان بعد ثورة يوليو.

ومنذ عام ١٩٥٢م أصبح أحمد حسن الباقوري بوقًا من أبواق جمال عبد الناصر.. كان -أي الباقوري- يمدح عبد الناصر، ويخطب له بحماسة، ويؤلّف القصائد في تعداد مآثره وبطولاته. وعندما تحوّل البطل إلىٰ مجرم سفّاح بعد حادث المنشية، وقف الباقوري في صفّه، وراح يهاجم الإخوان، ويندّد بهم وهو يرىٰ المشانق التي نصبها (فرعون) للعلاّمة عبد القادر عودة، والشيخ محمد فرغلي وبقية إخوانهما.

كان هذا الباقوري يجوب مدن مصر وقراها مع الشيخ حسن البنا يخطب له، ويمدحه، ويقرض الشعر مشيدًا بدعوة الإخوان ومؤسسها..!! ثم رافق الأستاذ الهضيبي في جولاته علىٰ مدن مصر وقراها يخطب، ويحاضر، وينشد..!! ثم رافق عبد الناصر وزملاءه في زياراتهم للمدن والأرياف، وكان يخطب ويحاضر ويلقي القصائد في مدحهم، وفي الهجوم علىٰ إخوانه ورفاق دربه، ومنهم الأستاذ حسن الهضيبي، الذي كان يخطب له قبل أشهر!! ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [سورة آل عمران:٨].

وكان الباقوري يقول في الدفاع عن وجهة نظره، وتسويغ موقفه: عبد الناصر وزملاؤه مؤمنون بخطّ حسن البنا رحمه الله وأهدافه، وقاموا بانقلابهم من أجل تحقيق هذه الأهداف، وحسن الهضيبي ومن حوله انحرفوا عن خطّ البنا.

هزلت!! السكارىٰ الحشّاشون قاموا بانقلابهم من أجل أن يكون الدين كله لله. ومن أجل سلامة خطّ البنا يُعدمون أفاضل العلماء والدعاة، ويزجّون بخيرة شباب مصر في سجون مظلمة، ليس فيها شفقة ولا رحمة!!

عاد الباقوري واعترف في مذكراته بأن عبد الناصر وزملاءه ليسوا كما كان يقول عنهم، ولكن هذا الاعتراف جاء بعد هلاكهم، ولم تعد له مصالح ولا منافع عندهم.

لقد قرأت تاريخ هذا الباقوري، وكنت من خلال هذه القراءة أبحث عن جواب للسؤال الآتي:

هل كان الباقوري مخلصًا لدعوة الإخوان، مستعدًّا لتقديم نفسه وماله فداءً لهذه الدعوة وهل بقي علىٰ هذه الحال حتىٰ أصبح وزيرًا للأوقاف، فانحرف وأصبح خصمًا لهم؟!

وجدت من خلال هذه القراءة أن اسمه لم يرد بين أسماء الإخوان الذين حاربوا في فلسطين، ولم يرد اسمه بين أسماء الإخوان الذين حاربوا الإنجليز علىٰ ضفاف قناة السويس، ولم يدخل السجن من أجل دعوة الإخوان. وأستغرب لماذا كانت سلطات الأمن تتجنّب اعتقاله، مع أنه من أعضاء مكتب الإرشاد. ومع ذلك فقد سُجن في قضايا وطنية، وكان من زملائه في السجن: أنور السادات، والقبطي موسىٰ صبري، وكان بينه وبين الأخير علاقات قوية.

ويقول –أي الباقوري– في مذكراته: إنه ما كان يعرف شيئًا عن النظام الخاص، مع أن هذه المؤسسة كانت من أهم مؤسسات الإخوان، ويقول أيضًا: إنه اقترح علىٰ الشيخ حسن البنا أن يذهب إلىٰ القصر الملكي، ويسجل اسمه في سجل التشريفات، لمقابلة الملك فاروق وتحيته بعد عودة البنا من الحج.

وخلاصة القول: لم أجد في تاريخ الباقوري في دعوة الإخوان إلا الخطب الرنّانة، والقصائد الفضفاضة. وهذه هي صفته، وهذه هي بطولاته.

لست مقتنعًا أن الباقوري كان مستقيمًا تقيًّا ورعـًا، ثم جاءته الوزارة فجرفته وأبعدته عن إخوانه ومحبيه. والذي توصّلت إليه أن هذا الرجل كان يبحث عن منصب، وظن في تلك الفترة أنه بوسعه الوصول إلىٰ هذا المنصب من خلال انضمامه إلىٰ جماعة الإخوان المسلمين.

وعندما عرض عليه عبد الناصر وزارة الأوقاف سارع إلىٰ قبولها، والنهوض بتبعاتها. ولو كان من هذه التبعات عمل المنكر والانتصار للعلمانية. وهذه حال أصحاب المصالح، يعملون أي شيء من أجل تحقيق مصالحهم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة البقرة:١٤] (١).

كان الباقوري يزعم أن عبد الناصر من أحب خلق الله إليه، وأنه ليس أقلّ بطولة من

(١) لا أعني من استدلالي بهذه الآية أن الباقوري كان منافقًا كالمنافقين الذين نزلت بحقهم هذه الآية، كما أنني لا أعني أنه مقتنع بالعملية، وإنما أعني أن شهوات النفس وحظوظها دعته إلىٰ خدمة الطاغوت والسير في ركابه. أسأل الله أن يغفر له.

صلاح الدين الأيوبي. ثم ورد في مذكراته التي كتبها عام ١٩٨٦م، أنه ما كان يحبه ولا كان معجبًا به، وكان يستنكر -ولو بقلبه- استبداده وجبروته وظلمه، وسعيه من أجل تعبيد الناس لذاته. وكان رأيه -أي الباقوري- ببقية أعضاء مجلس قيادة الثورة أسوأ من رأيه بعبد الناصر.

انشقاق عام ١٩٥٣م:

احتلّ المنشقّون المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين في القاهرة بضع ساعات، وحاولوا إجبار المرشد العام حسن الهضيبي علىٰ الاستقالة. ولست بصدد تأريخ هذه الواقعة، وذكر أسبابها، وأهم ما كُتب عنها، ولكنني بصدد إثبات دور عبد الناصر فيها. لقد كان هذا الثعلب يعلم أن الضربة القاتلة التي يوجّهها إلىٰ الإخوان، يجب أن تكون من الداخل، متّبعًا بذلك سياسة (فرق تَسُد).

وقد أشرنا فيما مضىٰ إلىٰ أن عبد الناصر قد أقام علاقات خاصّةً مع زعماء النظام الخاص، أي: عبد الرحمن السندي ومساعديه، كما أقام علاقات خاصّةً مع الشيوخ أمثال: سيد سابق، والغزالي، وغيرهما. وكلما ضعفت علاقاته بمساعدي الهضيبي، كلما توثّقت هذه العلاقات مع الطرف الثاني: الشيوخ وزعماء النظام الخاص.

وجاء الوقت المناسب بعد مقتل الأخ سيد فايز أحد أعمدة النظام الخاص المعارض للسندي والمؤيد للهضيبي.

يتحدّث الأخ سيد عيد أحد أعضاء النظام الخاص، ومسئول إخوان شبرا الخيمة في هذا النظام، فيقول: (خلال شهري سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٥٦ كان الجو الحكومي مشحونًا ضدّ جماعة الإخوان المسلمين، وكانت خطة عبد الناصر وقتها هي الاتصال

بأعضاء من الجماعة –من خلف ظهر المرشد– ساعيًا لتجميعهم ضدّه، بعد أن تبيّن له أن المرحوم الهضيبي يشكل عقبةً خطيرةً في طريق تنفيذ مخططاته ضدّ الجماعة).

ويواصل سيد عيد حديثه عن محاولة الهضيبي إصلاح النظام الخاص، وخاصّةً بعد مقتل سيد فايز، وفصل السندي، وأحمد عادل كمال، ومحمود الصباغ، وأحمد زكي من الإخوان، لأنهم متّهمون بهذه الجريمة.. ثم يتحدّث عن اقتحام أفراد من النظام منزل الهضيبي وطلبهم منه الاستقالة، ثم اقتحامهم المركز العام. ويقول سيد عيد بعد دخوله المركز العام أثناء سيطرة المنشقّين عليه: (اتصل بي تلفونيًّا الأخ صلاح العطار –مسئول النظام عن شبرا– ومن المقرّبين للسندي، وكان في الشقة التي تُدار منها الأحداث في باب اللوق، قرب مبنىٰ جريدة الأهرام، فقال لي: ماذا تعمل في المركز العام؟ قلت له: أؤدي مهمةً، قال: من كلّفك بها؟ قلت: الله كلّفني بها. فأعطاني عنوان المكان الذي ينتظرني فيه بالقرب من مبنىٰ صحيفة الأهرام وقال: تعالىٰ إليّ.. فذهبت والتقيت به تحت البناية التي بها الشُّقة، وكنت في أشدّ حالات الانفعال، فقصصت عليه ما عندي، ثم انخرطت في البكاء، فهدّأني قائلاً: هناك ما هو أخطر من هذا.. إن سيد سابق قادم الآن من عند عبد الناصر، ليبلغ السندي بموافقته علىٰ الانقلاب داخل الإخوان، وأنه لن يدخل إلىٰ أن يتم الأمر –لأن تدخّله سيقلب الأمور– وأن التعاون مع عبد الناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب).

ويمضي سيد عيد في الحديث، فيقول: "وحدث في أثناء انتظارنا قرب منزل المرشد، أن التقينا بالأستاذ سيد قطب الذي كان غاضبـًا يردّد: يا فرحة الصهيونية والصليبية العالمية!!

وعندما اتيحت لي فرصة بعد ذلك –وأنا في السجن– للالتقاء بالأستاذ سيد قطب حدثته بأني تساءلت وقتها –في نفسي– بدهشة: ما دخل الصهيونية والصليبية العالمية بخلاف داخلي بين الإخوان!! فقال لي: اتصل بي الأستاذ علي أمين الساعة الثانية ظهر يوم الحادث، وسألني قائلاً: أين حاسّة الصحفي عندك..! الإخوان قائمون علىٰ بعض بالسلاح وأنت قاعد في البيت؟! فقمت عندها وأخذت سيارة تكسي، وذهبت إلىٰ بيت المرشد فلم أجد شيئًا غير عادي.. وذهبت إلىٰ المركز العام فلم أجد شيئًا لافتًا للنظر كذلك.. ثم تحدث بعد ذلك كلّ الأمور التي حدثت!!. وهذا ما جعل الشهيد سيد قطب يقطع بأن الأمر مدبَّر من أكثر من جهة؟"[1].

وقال أحمد أبو الفتح في كتابه (جمال عبد الناصر) ما خلاصته: (إن عبد الناصر دعاه إلىٰ منزله في هذه الليلة، حوالي الساعة التاسعة مساءً، ووجد أنور السادات عنده. وكانت أخبار اقتحام المركز العام تأتيه تباعًا، فإذا جاء الخبر بنجاح المنشقّين في السيطرة علىٰ المركز تظهر السعادة علىٰ وجهه. ويقول أبو الفتح: وفي اليوم الثاني علم عبد الناصر بفشل المنشقّين، وسيطرة الإخوان عليه. فكان لهذا الحادث أسوأ الأثر علىٰ نفس عبد الناصر).

فشل المنشقّون في السيطرة علىٰ المركز العام، كما فشلوا في محاولتهم إجبار المرشد الهضيبي علىٰ الاستقالة، غير أن هذا الفشل دفعهم إلىٰ مزيد من الحقد، فازداد تقاربهم وتعاونهم مع عبد الناصر، وراحوا يتآمرون معه ضدّ إخوانهم. وكان لهم دور مؤسف في الضربة التي وجّهها عبد الناصر إلىٰ الإخوان عام ١٩٥٤م، أي بعد مسرحية اغتيال عبد

(١) هذه الرواية سمعتها من الأخ سيد عيد، ونقلها عن سيد عيد صلاح شادي في كتابه: صفحات من تاريخ، الصفحات من ١٠١ إلىٰ ١٠٨، ويبدو أن شادي أراد التلميح بدلاً من التصريح، فعبارة سيد عيد التي نقلها عن سيد قطب: ولما كان علي أمين عميلاً أمريكيًا معروفًا فقد أدرك أن لأمريكا علاقة بهذه الفتنة.

الناصر في حادث المنشية.

ومن الجدير بالذكر أن أهم المنشقّين الذين فُصلوا من الجماعة هم: قادة النظام الخاص [السندي، والصباغ، وعادل كمال، وأحمد زكي]، والشيخ سيد سابق، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ البهي الخولي، والشيخ عبد العزيز جلال، والأستاذ صالح العشماوي، وآخرون غيرهم.

وقبل انتهاء الحديث عن المنشقّين أودّ الإشارة إلىٰ ما يأتي:

١- لم يكن حادث الانشقاق كله من صنع جمال عبد الناصر، والصحيح أنه كانت هناك خلافات داخل الإخوان، استغلّها جمال عبد الناصر، وحاول الاستفادة منها.

٢- لم يكن دور المنشقّين واحدًا، فهناك من ندم علىٰ ما صنع، وهناك من خطَّأ لنفسه خطًّا آخر، وكانت له مواقف إيجابية. إلا أن أسوأ هذه الأدوار كان دور السندي [١] لأنه قدّم لعبد الناصر معلومات في غاية الأهمية.

أمريكا وثورة يوليو:

كان لجمال عبد الناصر وبعض ضباط انقلاب يوليو صلة بالأمريكان، وسبقت هذه الصلة يوم ٢٣ يوليو. ولا أدري ماذا كان اسم عبد الناصر الحركي عند الأمريكان، هل كان اسمه أم ميشال؟! غير أن الإخوان كانوا يعرفون شيئًا عن هذه الصلة قبل الثورة، لأن عبد المنعم عبد الرؤوف شارك في لقاءات عبد الناصر مع رجال المخابرات الأمريكية.

---

(١) ردّ أحمد عادل كمال في كتابه: (النقط فوق الحروف.. الإخوان المسلمون والنظام الخاص) علىٰ رواية صلاح شادي، ولكنني أثق برواية سيد عيد، لأنه طرف حيادي.

ويذكر عبد القادر حلمي أن عبد الناصر كثرت لقاءاته بالإخوان [أي شادي، وحسن العشماوي، وعبد القادر حلمي، وصالح أبو رقيق] قبل انقلاب يوليو ببضعة أشهر، وكانوا يتناقشون عن الانقلاب وموقف أمريكا وبريطانيا، وفوجئوا أن عبد الناصر يقول لهم ذات مرة: (إنَّ أمريكا لن تقف في صف الملك إذا حدث الانقلاب، بل إنها تؤيد أيّ ثورة أو انقلاب يطيح به. وقد فهم ضمنًا أنه يبني رأيه علىٰ أساس معلومات استطاع بعض زملائه الحصول عليها، نتيجة صلة صداقة أو عمل مع مسئولين في السفارة الأمريكية)[١].

وفي مارس سنة ١٩٥٢م أي قبل الحركة بأربعة أشهر، طلب عبد الناصر من خالد محيي الدين عدم استخدام عبارة (الاستعمار الأنجلو أمريكي) في منشورات الضباط الأحرار [٢].

وعندما قام انقلاب يوليو تدخّل السفير الأمريكي (جيفوسون كافري)، وأقنع الملك فاروق بوجوب مغادرة البلاد.

ومن شاء مزيدًا من المعلومات عن ارتباط ضباط يوليو بالأمريكان فليراجع ما يأتي:

- وثائق وزارة الخارجية الأمريكية.
- لعبة الأمم، ولاعب اللعبة لرجل المخابرات الأمريكي (مايلز كوبلند).
- مذكرات ضباط انقلاب يوليو.
- رسالة مصطفىٰ أمين، التي أرسلها إلىٰ عبد الناصر عندما كان رهين سجونه.
- مذكرات كبار الإخوان المسلمين.

---

(١) صفحات من التاريخ، صفحة: ١٧٢، وصفحة: ١٨٠.

(٢) المصدر السابق.

ومن الكُتَّاب الذين أجادوا وأفادوا في تتبع علاقة عبد الناصر بالأمريكان جلال كشك، في كتابيه: (ثورة يوليو الأمريكية)، و(كلمتي للمغفلين). ومن أهم رجال المخابرات الأمريكية الذين فاوضوا الضباط قبل انقلاب يوليو (كيرميت روزفلت).

لا شك أن عبد الناصر كان داهيةً في تعامله مع كافة الأطراف، كما كان شديد التكتّم، ويحتفظ دائمـًا بأمورٍ لا يقولها للذين يتعاملون معه. ومن جهة أخرىٰ فقد استمرّ الإخوان فترةً من الوقت يحسنون الظنّ به، ولعلهم فيما بعد الجولة الأولىٰ [١] التي كشفت ارتباطه بالأمريكان في بيانات سرّية، كانوا يوزّعونها قبل محنتهم في عام ١٩٥٤م.

عقلية فرعون:

إذا كان فرعون موسىٰ قد قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة غافر:٢٩]، ففرعون انقلاب يوليو قال: (اسمع يا فريد، أقولك اللي في نفسي وأخلص، أنا عندي فكرة مستولية عليّ، ولا أعرف إذا كانت غلط أو صح، إنما أنا عايز في خلال سنتين ثلاثة أوصل إلىٰ أني أضغط علىٰ زر، البلد تتحرّك زي ما أنا عايز، وأضغط علىٰ زر، البلد تقف) [٢].

---

(١) كان الأستاذ سيد قطب رحمه الله هو الذي يكتب هذه البيانات، ولهذا فقد كان حقد عبد الناصر عليه حقدًا عظيمًا.

(٢) كان يخاطب فريد عبد الخالق في اجتماع حضره عن الإخوان فيه: منير دلة، فريد عبد الخالق، صالح أبو رقيق، حسن العشماوي، عبد القادر حلمي، وحضره عن ضابط انقلاب يوليو: جمال عبد الناصر، كمال الدين حسين، صلاح سالم عبد اللطيف البغدادي، أنور السادات، أحمد نور: انظر: "صفحات من التاريخ"، ص: ٢١٤، وورد قول عبد الناصر في عدد من مذكرات الإخوان الذين عاصروا هذه الأحداث.

وإذا علمنا أن ما قاله عبد الناصر كان في نهاية ديسمبر سنة ١٩٥٢م، أي بعد ستة أشهر من انقلاب يوليو، فهذا يعني أن العقلية الفرعونية التي فكَّر بها، كانت واضحةً عند الإخوان، وعند زملائه الضباط. أما الإخوان فقد ردّوا عليه علىٰ لسان فريد عبد الخالق ردًّا لا تنقصه الصراحة.

أما زملاؤه الضباط فلم يردّوا عليه، ولم يستنكروا مقولته، بل كانت الموافقة ظاهرةً علىٰ وجوههم، كما كانت ظاهرةً علىٰ ألسنتهم، إذا أعطىٰ سيدهم لأحدهم فرصةً للحديث، كان لسان حالهم يقول: سيدي الزعيم سأكون أول من ينتظر سماع هذا (الزر) لتنفيذ أوامرك بحذافيرها. ولا أدري لماذا قادوا انقلابًا ضدّ فاروق، لأن الذلّ في عهده أقل من الذلّ في عهد عبد الناصر. كما أني لا أدري ما الفرق بينهم وبين بطانة فرعون؟!

وسُئل صديق عبد الناصر ورجل المخابرات الأمريكية في مصر (مايلز كوبلند): "إذا خُيِّر عبد الناصر بين التنازل عن السلطة أو دمار مصر، فماذا يختار؟! فأجاب من غير تردّد سيختار البقاء علىٰ السلطة) [1].

وهذا ما طبّقه خلال فترة حكمه، كان جلادًّا، لا يتحمّل نقدًا، ولا يسمح لأحد أن يشاركه في إصدار القرار. ولقد جاءت مذكرات زملائه مؤكّدةً أن الثورة في مصر تعني مزاجية عبد الناصر. يقول كمال الدين حسين في رسالته التي أرسلها إلىٰ عبد الحكيم عامر في ٥ نوفمبر ١٩٦٥م: (قلت لكم اتقوا الله بعد أن ألجمتم جميع الأفواه، إلا أفواه المنافقين والمتزلّفين والطبّالين والزمّارين).

ويقول أيضًا: (ألم أقل لك يومئذ: إنه إذا لم يتنازل –عبد الناصر– عن تألّهه وفرديته،

(١) انظر كتاب ثورة يوليو الأمريكية، جلال كشك، ص: ٦١٦.

فلا فائدة للعمل معه. فهل يا ترىٰ هذا الذي جرىٰ لمواجهة كلمة اتق الله هي دليل هذا التنازل).

ويمضي قائلاً: (وأشعر بذنب واحد، وهو أن ثقتي غير المحدودة فيكم مكَّنت الطغيان أن يسلب هذا الشعب حريته، وكرامته وإنسانيته، ومهما كانت الشعارات الزائفة التي تُردّد، والادعاءات التي تُقال، فالناس جميعًا يعرفون حقيقتها، والسلام) [1].

وكاتب هذه الرسالة أحد أركان حكم عبد الناصر. ويعرف جيّدًا ماذا يحدث في أنديتهم ومؤسساتهم.

والشاهد هنا أن الإخوان كانوا يعرفون العقلية التي يفكّر بها عبد الناصر في وقت مبكر، وكان الهضيبي لا يثق به، ومع ذلك استمرّ العشماوي وشادي وآخرون في التعامل معه. وكما قلت كان حسن العشماوي يحمل رسائله إلىٰ ملوك الدول العربية ورؤسائها.

أما زملاؤه قادة انقلاب يوليو فقد أيّدوه في موقفه من الجماعة التي أعطوها البيعة، كما أيّدوه في مذبحة ليمان طره. وكان كمال الدين حسين من الذين أيّدوه، وجاء ندمه متأخّرًا.

وشاء الله أن يبدأ بزملائه بعد انتهاء معركته ضدّ الإخوان، لقد بطش بهم واحدًا تلو الآخر، ولم يتردّد في قتل أقرب الناس إليه –عبد الحكيم عامر– عندما أصبحت حياته خطرًا علىٰ الطاغوت.. وعند هلاك عبد الناصر كان قد بقي حوله اثنان من أعضاء مجلس قيادة الثورة أنور السادات، وحسين الشافعي: أما السادات فقد خطّ لنفسه خطًّا منذ بداية

(١) "الصامتون يتكلمون"، ص: ١٤٠، ويقصد بقوله: "ألم أقل لك يومئذ" أي قبل بضعة أشهر من كتابة هذه الرسالة.

الثورة، وشرح هذا الخطّ في حديث له مع عبد القادر حلمي في ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢م عندما قال له: (اسمع يا عبد القادر، سأقول لك رأيًا في هذا الموضوع، رأيًا قرّرتُ أن أنتفع به، وأنصحكم أنتم أيضًا بذلك: لا تعادوا جمال، فإنه سيأكل الجميع.. لن يبقىٰ إلا من [يلبد] بين أسنانه، إنه أسد الموقف) (١).

وهذا الخضوع أهم سبب في اختيار عبد الناصر للسادات، ليكون نائب الرئيس.

أما حسين الشافعي فقد قال عنه عبد الناصر: "وجوده كعدمه، ولا يضرّ ولا ينفع، وكل ما يهتم به هو شاربه، وطريقة لبس [البيرية]، إنه أريحهم جميعًا" (٢).

وهذه عقوبة من الله عاجلة لهذه المجموعة التي أجمعت علىٰ النّفاق، وأظهرت في الأرض الفساد، واعتدت علىٰ العلماء والدعاة. ولم يسلم عبد الناصر من عقوبة الله. لقد أذلّه الله جل وعلا في حرب ١٩٦٧م، وغدر به أقرب الناس، وسلّط الله عليه الأمراض الفتّاكة.

وأحسب أن هذا الرجل ليس له أصدقاء، ولا يقرب ويصاحب إلا من ينتفع به، ولا يعبد ويقدّس إلا ذاته، وكان يشك بكل من حوله، وهكذا يعيش الطواغيت.

(١) كتاب "الأيام الحاسمة وحصادها"، حسن العشماوي، ص: ١٠٣ عن كتاب [الإخوان وعبد الناصر، أحمد عبد المجيد، ص: ٣١٦].

(٢) كتاب "جمال عبد الناصر"، أحمد أبو الفتح، ص: ٢٧٧، وأريحهم: يعني لا يهش ولا ينش!

المثال الثالث:
جويفل والانشقاق السوري عام ١٩٥٤م

كانت بلاد الشام في الخمسينات تحتل المكانة الثانية بعد مصر، من حيث اتساع رقعة الأنشطة الإسلامية ورسوخها. وكان العاملون إلىٰ الله صنفين من الناس:

فالصنف الأول جماعة الإخوان المسلمين، وكان يقود هذه الجماعة الدكتور الشيخ مصطفىٰ السباعي رحمه الله، وهو في عمله ووعيه وجهاده من الشخصيات القليلة النادرة في العالم الإسلاميّ.

والصنف الثاني هم العلماء ومعاهدهم العلمية الشرعيّة التي يرعونها. وكان هؤلاء العلماء يستقطبون جمهورًا من الشعب، لا يُستهان به. وكان معظم القائمين علىٰ الاتجاهات الإسلامية يوحّدون مواقفهم عند الضرورة.

وعندما أعدم عبد الناصر ومساعدوه من قادة انقلاب يوليو الشيخين العالمين: عبد القادرة عودة، ومحمد فرغلي، ومعهما أربعة من الإخوان، وزجّوا بالآلاف الأبرياء في سجونهم المظلمة، لا لشيء إلا لأنهم رفضوا استبداد عبد الناصر وبطشه وجبروته.. في هذه الظروف العصيبة استطاع الإخوان تعبئة الرأي العام السوري ضدّ طغيان عبد الناصر، وبدأوا أنشطتهم بمظاهرة، لعل سورية لم تشهدها من قبل.

وقد انطلقت هذه المظاهرة من المسجد الأموي، وكان يقودها الشيخان: مصطفىٰ السباعي وعلي الطنطاوي، ولفيف من العلماء وكبار الدعاة. وألقىٰ الشيخ علي الطنطاوي خطبةً بليغةً مؤثّرةً أبكت كلّ من سمعها، وكان عنوانها: (يوم الحداد العام)، لأن المظاهرة جاءت بعد تنفيذ حكم الإعدام. وقد جرىٰ فيما بعد هذه الخطبة وتوزيعها

في كتيب. وخرجت مظاهرات مماثلة في مختلف المدن والمحافظات السورية تندّد بالديكتاتور المستبد.

وكان هذا الحدث موضع استنكار الشعب السوري كلّه، علىٰ مختلف طوائفه واتجاهاته. وصدرت بيانات تندّد بالجريمة عن مختلف الأحزاب العلمانية، والنقابات المهنية، وعن المجلس النيابي السوري الذي كان يرأسه فارس الخوري -وهو نصراني- ناهيكم عن البيانات والخطب الصادرة عن مختلف الاتجاهات الإسلامية.

ولم ينس فرعون مصر للإخوان السوريين موقفهم هذا، وهيهات ذلك، لأن قلبه أشدّ سوادًا من الليل الدامس، فقد احتجّ عبر سفيره لدىٰ الحكومة السورية، وكان ردّها: لا نستطيع منع الإخوان من التعبير عن آرائهم في ظل نظام ديمقراطي.

وكان لابد أن يفعل بإخوان سورية ما فعله بإخوان مصر عام ١٩٥٣م، وتشجيعه للفئة المنشقّة علىٰ احتلال المركز العام، لأن إخوان سورية بمثل هذه الأنشطة سيقفون عائقًا ضدّ زعامة عبد الناصر وطموحاته، التي تستهدف السيطرة علىٰ العالم العربي.

ولعل هذا الأمر من أهم الأسباب التي دفعته إلىٰ التحالف مع القوميين العلمانيين، وعلىٰ رأسهم حزب البعث، ومع اليساريين اعتبارًا من عام ١٩٥٦م، وفي الانتخابات التكميلية عام ١٩٥٧م، أي عندما احتدمت المعركة بين الإسلاميين الذين كان يمثّلهم مصطفىٰ السباعي في هذه الانتخابات من جهة وبين القوميين واليساريين الذين كان مرشحهم رياض المالكي [شقيق العقيد عدنان المالكي الذي اتُّهم باغتياله القوميون السوريون]، انحاز عبد الناصر إلىٰ أصحاب الاتجاه الثاني، وكان يرسل طه حسين وغيره من الشخصيات المصرية العلمانية، ليشاركوا في (مهرجانات) البعثيين واليساريين.

ومما زاد من حقد عبد الناصر علىٰ الإخوان السوريين فرار عدد من الإخوان المصريين، الذين صدرت ضدّهم أحكام قاسية، أو الذين كانت تلاحقهم أجهزة الأمن المصرية، ولجأ هؤلاء الفارّون إلىٰ سورية، ووجدوا عند إخوانهم السوريين كلّ عطف ومحبة وتقدير.

ولا غرابة في ذلك، فأهل بلاد الشام يحسنون استقبال الغريب ومواساته، ولا يشعر بغربته خلال إقامته بين ظهورهم. وليقرأ من شاء ما كتبه علاّمة الجزائر والرئيس الثاني لجمعية العلماء الجزائريين الشيخ البشير الإبراهيمي في هذا الشأن [1]، ومن جهة أخرىٰ فالإخوان السوريون يعترفون لإخوان مصر بالأسبقية، وقد درس بعضهم في مصر، وعرفوا الشيخ حسن البنا وإخوانه عن كثب، وشاركوهم في السرّاء والضرّاء، ودخلوا معهم السجن أيام محنهم في عهد الفاروق وما أكثر هذه المحن!

كان من بين الإخوان المصريين الذين التجأوا إلىٰ سورية شاب لا يعتبر من رجال الصف الأول ولا الثاني في الإخوان، لكنه كان معروفًا عند الإخوان السوريين، لأنه من الذين شاركوا في كتائب الإخوان التي جاهدت فلسطين عام ١٩٤٨م، وسبق أن فرّ إلىٰ بلاد الشام بعد حادث سيارة (الجيب)، وأقام في لبنان فترةً من الزمن، ثم عاد إلىٰ مصر بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢م، وبعد أن أصدر عبد الناصر عفوًا خاصًّا عنه وعن زملائه، الذين اشتركوا في هذا الحادث.

ويُذكر اسم هذا الشاب إذا ذُكرت قصة المنشقّين وسيطرتهم علىٰ المركز العام عام

---

(١) كتاباته رحمه الله تعالىٰ عن البلاد الشام كثيرة، ومنها ما كتبه في جريدة "البصائر" الصادرة عام ١٩٤٩م، العدد ٦٤.

١٩٥٣م، لأنه كان من أشهر الذين تصدّوا لهم، وأجبروهم علىٰ مغادرة المركز العام. وقصارىٰ القول: لم يكن هذا الشاب مجهول الحال عند الإخوان السوريين، ولم يحذّرهم أحد منه، ولهذا فقد أحسنوا استقباله، وأكرموا مثواه، كغيره من الإخوان المصريين الذين التجأوا إلىٰ سورية.

ولم يكن عند هذا الشاب علم شرعيّ يقدّمه لشباب الإخوان في سورية، ولم يكن خبيرًا في الأمور التربوية، فهو ليس عالمًا ولا طالب علم، وكلّ ما يستطيع تقديمه لهم: التدريب العسكريّ، وتجاربه وذكرياته في النظام الخاص، ومما يجدر ذكره أن سلبيات هذا النظام أكثر من إيجابياته.

استغلّ هذا الوافد الجديد حُسن استقبال الإخوان السوريين له، فأقام صلات مع مجموعة من شباب الإخوان، تعرّف عليهم، وتوثّقت الروابط بينهم وبينه. فكان يخرج معهم إلىٰ الجبال الوعرة القريبة من مدينة دمشق، وهناك كان يدرّبهم تدريبات عسكريةً، ويحدّثهم عن حرب فلسطين، وعن معارك قناة السويس ضدّ الإنجليز المحتلّين، وعن مقاومة جماعة النظام الخاص للإنجليز وعملائهم في مختلف المدن المصرية. وكانت مثل هذه الأحاديث تبعث النشوة في نفوس المستمعين، وتحبّب إليهم هذا الأخ المصري، وتضاعف من رغبتهم في مزيد من التدريبات، وكانوا يتساءلون: كيف يكون للإخوان في مصر نظام خاصّ، ولا يكون مثيل له في سورية. أو لسنا جزءًا من العمل القائم في مصر؟!

وانتهوا بعد طرح هذه الأسئلة وغيرها إلىٰ القول: إن القيادة ممثّلة بالشيخ مصطفىٰ السباعي مسئولة عن هذا الخلل، وهذا ما كان يحرص عليه، ويسعىٰ إليه صاحبهم بطريقة

بارعة، ليس فيها تسارع ولا استعجال، وهكذا أصبح نقد القيادة فقرةً غير معلنة من نظام رحلات هؤلاء الشباب، وصار كلّ واحد منهم يتحدّث عن السلبيات، وينادي بالإصلاح أو التغيير.

لهذا السبب ولغيره وقع انشقاق ١٩٥٤م في سورية، وكما قلت سابقًا: لم تكن الأمور علىٰ خير ما يرام، ثم جاء هذا الوافد الجديد فصنع الانشقاق من ألفه إلىٰ يائه، لا ، لم يكن الأمر كذلك، فداعية الفتنة لا يجد سبيلاً لفتنته، إلا إذا وجد خللاً في الصفوف، واختلافًا في المفاهيم والتصورات. وكما يقال: لا تكثر الزلازل إلا في الأرض المشقّقة، ويكاد هذا القول يكون قاعدةً لا تتخلّف.. فليتذكر القارئ الكريم هذه الحقيقة في كلّ مرّة قادمة، سأتحدّث فيها عن مثل هذا الاختراق المؤسف.

والمهم هنا أن الانشقاق أصبح حقيقةً، وامتدّ ليشمل عددًا من المحافظات. وصار للإخوان مركزان في دمشق: الأول في حي (الشهداء) يتبع الشيخ مصطفىٰ السباعي ومن بقي معه، والثاني في حي (باب الجابية) يتبع المنشقّين. وكانت العلاقة بين الثاني والأول علاقة تنافر وخصومة، وعمّق المشاغبون من الطرفين هذا الخلاف، وأوصلوا الطرفين إلىٰ طريق مسدود. وفي أوقات الفتن يضعف أثر الطيبين، وينشط المشاغبون.

كثر كلام الإخوان -بعد وقوع الانشقاق- عن هذا الوافد الجديد ودوره المشبوه.

ومما كانوا يقولون عنه: إن حياته في منزله لا تتناسب مع حياة شاب فرَّ من بلده، وليس له دخل معروف. ومما زاد من شكوكهم مشاركة بعض المنشقّين في أعمال تجارية؟! فمن أين جاء بالأموال. وكان يسمع هذه الأقوال ويضيق ذرعًا بها، وينأىٰ عن أصدقائه، ويحرص علىٰ ألا يستقبلهم في منزله.

وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر، كان معظم الإخوان المصريين قد غادروا سورية إلىٰ بلدان أخرىٰ، لأنهم كانوا يعرفون ماذا ينتظرهم عند نظام عبد الناصر. أما هذا الشاب فلم يغادر سورية، ولم يتعرّض للتحقيق والتوقيف، كما حصل مع القلة القليلة التي لم تغادر سورية. وكان مطمئنًا لا يخشىٰ علىٰ نفسه، وإن زعم خلاف ذلك. وتجدّدت الشكوك بأن له دورًا في نظام عبد الناصر، وقال بعضهم: إنه موظف في (مكتب الاتصال) المصري الذي اتخذ من بناية مجلس الوزراء السوري مقرًّا له.

وكان من الممكن أن يبقىٰ الحديث عن هذا الشاب مجرد ظنون، وكان بوسعه أن يقول: اختلفت معهم فرموني بما أنا منه بريء، ولكن الله جل وعلا شاء أن يُظهر الحقيقة بكل أبعادها، فبعد وقوع الانفصال بين سورية ومصر في ٢٨ أيلول عام ١٩٦١م، اشتدّ الخلاف بين البلدين، وألقىٰ عبد الناصر بثقله، من أجل عودة سيطرته علىٰ سورية. وأمام هذه المؤامرات الناصرية، لم تجد سورية بُدًّا من رفع شكوىٰ غلىٰ جامعة الدول العربية ضدّ نظام عبد الناصر. وبعد دراسة هذه الشكوىٰ، اقترحت الجامعة عقد مؤتمر في (شتوره) في لبنان، لحلّ هذا الخلاف، ووافقت كلّ من سورية ومصر علىٰ اقتراح جامعة الدول العربية، وحشد كلّ طرف ما عنده من إمكانات لإدانة الطرف الآخر.

وفي مؤتمر (شتورة)، الذي عقد عام ١٩٦٢م، تحدّث رئيس المخابرات السورية عن مؤامرات النظام الناصري ضدّ سورية، ومما ذكره دور هذا الشاب المصري، وكيف أرسله عبد الناصر عام ١٩٥٤م لشقّ جماعة الإخوان المسلمين، وكان برتبة مقدّم، وذكر نشاطه في مكتب الاتصال المصري.

سمع أصدقاء هذا الشاب ما قاله رئيس المخابرات السورية عنه في مؤتمر (شتورة)،

ومن لم يسمع فقد قرأ الصحف السورية الصادرة في تلك الفترة، وكانت تنشر كلّ ما يقوله السوريون في هذا المؤتمر، فراحوا يتبرّأون منه، ويتستّرون علىٰ علاقتهم السابقة معه، بل أخذ بعضهم يدّعي أنه شك به وبتصرفاته منذ الوهلة الأولىٰ.

والذي يعنينا في هذا الصدد أن اختراق هذا العميل للجماعة الإسلامية في سورية بدأ عام ١٩٥٤م، واستخدم شعار الجهاد في سبيل الله لإغراء ضحاياه، والإيقاع بهم. واكتشاف دوره الحقيقي جاء في مؤتمر (شتوره) عام ١٩٦٢م، أي بعد ثمان سنين. وما كان رئيس المخابرات السورية وهو يتحدّث عنه، يريد تقديم خدمات للإخوان، ولكنه كان يريد فضح نظام عبد الناصر، ولولا الخلاف بين الدولتين لبقي الكلام عنه مجرد ظنون. فكم من العملاء والمنافقين لا يزالون ينخرون في جسم الجماعات الإسلامية، ويجدون من يحسن الظنّ بهم ويدافع عنهم، ويتصدّىٰ لكلّ من يعرض بهم!! وماذا يستفيد العاملون إلىٰ الله إذا تم اكتشاف هؤلاء العملاء بعد انتهاء دورهم وتحقيق أهدافهم؟!

ومما ينبغي أن نتذكّره جيّدًا، أن الانشقاق في صفوف الإخوان في مصر كان عام ١٩٥٣م، وان الانشقاق في صفوف الإخوان السوريين كان في عام ١٩٥٤م، وكان دور عبد الناصر واضحًا في الانشقاق الأول.

وإضافةً إلىٰ الأدلة التي سقناها فيما مضىٰ، نشير إلىٰ مذكرات خالد محيي الدين التي قال فيها: إن عبد الناصر في أحد اجتماعاتهم تكفّل بضرب الإخوان من الداخل، وإشغالهم بأنفسهم. كما كان لعبد الناصر دور في الانشقاق السوري، وإن لم يكن بمستوىٰ دوره في الانشقاق المصري. وكانت مطيته في الأول والثاني بعض قادة النظام

الخاص.

هذا ما أحدثه جويفل داخل صفّ الإخوان المسلمين في سورية. أما نشاطه خارج سورية، فيحدّثنا عنه الأستاذ زهير الشاويش بشيء من الإيجاز فيقول:

١-محاولة نجيب جويفل وبعض الشباب التفلّت من قيادة الإخوة في الكويت [الأستاذ عبد العزيز العلي المطوع وإخوانه]، مما أدّىٰ إلىٰ إلغاء الجمعية -يومها- واستولىٰ المنشقّون علىٰ أموالها ووثائقها، ولم يعد العمل إلا بعد زمن طويل.

٢-التغيير في قيادة الجماعة بالأردن، واستقالة المراقب العام المجاهد عبد اللطيف أبو قورة.

٣-إحداث انقسام في لبنان بعد الجهود التي بذلها السباعي وإخوانه في تثبيت الدعوة خلال فترات إبعادهم إلىٰ لبنان.

وعن الإخوان في سورية يقول: (أما الفتنة في سورية فقد استمرّت طويلاً لعوامل متعدّدة.. منها استغلال فترات منع الجماعة، أيام انقلاب حسني الزعيم، وفي عهد الشيشكلي، وتطبيق الأحكام العرفية، ودخول السباعي وبعض إخوانه في السجون، وبالتالي خروجهم إلىٰ لبنان ومصر.. حتىٰ إنه لم يبق مع الأستاذ في الجماعة سوىٰ العدد القليل جدًّا، وفي دمشق كان لا يتجاوز عددهم في القيادة أصابع اليد الواحدة).

وقد استولىٰ المنشقّون علىٰ مركز الجماعة الأول في باب الجابية، ومركز الفتوة في المرج الأخضر، ونهبوا أموال الجماعة، وما عندها من أدوات رياضية وغيرها، وأتلفوا المكتبة العامة (وفيها كتب قيمة).. الخ.

وكان مثل ذلك في حمص، حيث احتلوا المعهد العربي الإسلاميّ، أصبح باسم

أحدهم الذي ارتقىٰ إلىٰ مناصب [١] عالية في الدولة!! واستولوا علىٰ النادي الرياضي، وكان أكبر نوادي سورية. وفيه تدرّب عدد من المجاهدين، الذين ذهبوا للقتال في فلسطين سنة ١٩٤٧م، واستُشهد عدد منهم. وعلىٰ المركز داخل الجامع الكبير، وغير ذلك في أماكن أخرىٰ.

وهنا ظهرت قوة مصطفىٰ السباعي في التمسّك بالحق الذي يراه -ونراه معه- حقًّا، فقاوم النظام [٢] وأتباعه داخل سورية ولبنان، وانتقل من بيروت إلىٰ مصر -مع الأستاذ عصام [٣] وكنت معهما، -حيث شرح لإخوان مصر الأوضاع، وطالبهم بسحب التأييد

(١) هو عبد المجيد الطرابلسي، وقد أصبح وزيرًا للأوقاف في التسعينات.

(٢) هو النظام الخاص السري الذي كان يرأسه السندي، وجويفل من الأعضاء البارزين في هذا النظام، وإن كان قد قاد القوة المساندة للمرشد العام حسن الهضيبي عام ١٩٥٣م، والتي أخرجت مجموعة السندي من المركز العام. هذا وقد اطلعت علىٰ معظم مذكرات الإخوان المصريين ومؤلفاتهم، ولم أجد فيها أجوبةً شافيةً عن الأسئلة التي يثيرها أمثالنا حول شخصية نجيب جويفل: كيف كان من النظام الخاص؟ وكيف خرج علىٰ قيادته في النظام وانحاز للمرشد العام، وكيف التجأ لسورية هربًا من نظام عبد الناصر؟ ثم تبيّن أنه من رجال عبد الناصر، وأنه مكلّف من سيده بتأدية دور خطير؟ وهذه الأسئلة لا يجيب عها إلا رفاق نجيب جويفل في النظام الخاص، وفي حادث سيارة الجيب، وفي حرب فلسطين، وفي هذا وذاك لا أدري لماذا سكتوا عنه؟!

(٣) يقول الأستاذ زهير الشاويش: كان عدد الذين وقفوا مع الأستاذ السباعي في دمشق لا يتجاوز أصابع اليد. وأقول: كان كثير من الذين وقفوا ضد السباعي في دمشق أسماء لامعة، ولهم شهرة، وكان يبدوا للناظر المتابع أن دمشق كلها سارت في الاتجاه الآخر، غير أن البركة كانت في القلة القليلة، وعلىٰ رأس هذه القلة الأستاذان: عصام العطار، وزهير الشاويش. لقد كانا أوفياء للسباعي، أمناء علىٰ سلامة خطّ الدعوة، وهما من القلة القليلة الذين هزموا المنشقّين، ومن أجل ذلك فقد تعرّضوا فيما بعد لحملة من التشهير والدسّ والافتراء داخل سورية وخارجها.

مما ألفت النظر إليه أنني تحدّثت عن دمشق المدينة التي يقيم فيها الأستاذ السباعي، ومكان وجود المركز العام. أما بقية المحافظات، فبعضها: كحلب، وحماة وغيرهما كانت مغلقةً بوجه المنشقّين، والفضل في ذلك بعد الله

للذين ساندتهم (جماعة النظام) في فتنتهم - من بعض قيادات الجماعة المصرية - وكان أن ساعد السباعي وإخوانه الإمام الهضيبي، والأستاذ سيد قطب، والأستاذ محب الدين الخطيب (صاحبه القديم أيام مجلة الفتح) والدكتور عبد العزيز كامل، والمجاهد محمود عبده والأستاذ عبد البديع صقر (وجماعة الأسس وكانت مجموعةً علميةً ناشطةً، والتسمية من قبل خصومهم!!) وغيرهم.

ثم جاء الأستاذ الهضيبي مع بعض إخوانه سنة ١٩٥٤ إلىٰ الشام تأييدًا للأستاذ السباعي، وأنه القائد للجماعة.

عاد الشاويش إلىٰ الحديث عن مؤامرة المنشقّين في دمشق فقال: (وفي دمشق كان من جماعة النظام بعد احتلال مركز الجماعة، أن جاء أحدهم وهو أحد المهندسين، وأخبر الأستاذ السباعي بمقتل المهندس سيد فائز -رحمه الله تعالىٰ- في مصر من قِبَل جماعة النظام بمتفجرة. ووصلتُ في تلك اللحظة، والمنشق يبلغه الخبر. فلما سمعت قوله، قمت إليه وقابلته بموقف عنيف جدًّا، وفُوجئ الشيخ السباعي والمهندس به، وكدت أن.. لولا تدخل الشيخ مصطفىٰ، ومنعني من ذلك).

ولما عاتبني الشيخ بعدها علىٰ موقفي، قلت له: قرأنا الخبر البارحة بالجريدة. وأما إخباره لك فما هو إلا تهديد لك. وبعد أن هدأ قال ضاحكًا ومداعبًا: "أنا وهو (المخبر) من حمص!! وأنت، أنت يا شامي؟!).

وبعد أيام جاءت مجموعة منهم، قرب منتصف الليل، إلىٰ بيت السباعي، وهو بيت صغير متفرّد في بساتين الحواكير. وفتحت لهم الخادمة، ودخلوا مباشرةً من غير إذن إلىٰ

للمسئولين فيها.

غرفة الضيوف الوحيدة المضاءة.

وفوجئوا بوجود القيادة مجتمعةً عند الشيخ. فما كان منهم، إلا أن قرأ أحدهم (ويده ترتجف، ولسانه يتلعثم) كلمةً مكتوبةً بعزل الشيخ والقيادة، وفصلهم من الجماعة.

وكاد أن يقع صدام بينهم وبين الإخوة الحاضرين، ولكن تدارك ذلك بحكمته ووقاره الأستاذ السبسبي -رحمه الله تعالىٰ- فقال لهم: (انتهىٰ البلاغ رقم واحد، تفضلوا واخرجوا مع السلامة!!)، وغادروا مسرعين.

وبعد ذهابهم تبين أنهم قطعوا خطّ الهاتف، وأنهم أخذوا مفتاح سيارة الأستاذ من السائق، الذي كان ينتظر، لينقل ضيوف الشيخ وبقي منهم واحد مسلّح بجوار السائق خارج البيت، ولعل وجود ما زاد علىٰ العشرة من الإخوة عند الأستاذ كان مفاجأةً لهم، غيَّر ما كان عندهم من تخطيط.

وأقول -الآن وكلهم أحياء-، وفي بعضهم فضل: لعل أحدهم يذكر ما كان خفيًّا عنا، بعد أن عرفوا أخبار الذي خدعهم (أو خدعوهم)، وباب التوبة مفتوح لنا ولهم، واستحلال الخصوم مطلوب شرعًا [1] .ا.هـ.

جويفل ومؤامرة ١٩٦٢م:

نشطت المخابرات المصرية بعد وقوع الانفصال [٢٨/ ٩/ ١٩٦١م] من أجل زعزعة الاستقرار في سورية، والسعي المتواصل من أجل القيام بانقلاب عسكري، يعيد الوحدة بين سورية ومصر. كانت السفارة المصرية في لبنان مركزًا للمتآمرين، وكان الفريق

(١) كتاب : (مصطفىٰ السباعي بأقلام محبيه وعارفيه)، ص:٥.

المكلف بإدارة هذه الأنشطة مؤلّفًا من: نجيب جويفل، محمد نسيم سكرتير أول السفارة المصرية، عبد الحميد السراج. أما الأطراف التي تعمل داخل سورية، وترتبط بالسفارة المصرية فتشمل كلاً من الأحزاب والحركات الآتية: الناصريين، حزب البعث، الوحدويين الاشتراكين، القوميين العرب.

ومن بين هؤلاء كان جويفل يلتقي مع أصحابه من بقايا المنشقّين، وهؤلاء كانوا ينسّقون مع البعث والقوميين العرب.. مع محمد عمران، وعثمان كنعان، وهاني الهندي وجادو عز الدين، وشوكت شقير، بعد أن كانوا ينسّقون قبل أن يتعرّفوا علىٰ جويفل مع العلماء والدعاة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج:٤٦].

ونذكر من هؤلاء المنشقّين الذين كانوا يلتقون مع جويفل: حسن عبيد، أحمد الداية، عبد المجيد الطرابلسي، وأنور حمادة الذي أصبح فيما بعد وزيرًا في نظام البعث، مثله مثل عبد المجيد الطرابلسي.

كانت شعبة المخابرات السورية قد اخترقت صفوف المتآمرين، وتطّلع علىٰ تفاصيل الاجتماعات، وما يُتخذ من قرارات. وفي منتصف عام ١٩٦٢م قامت قوات الأمن السورية بإلقاء القبض علىٰ المتآمرين. وأودعتهم سجن المزّة. أما نجيب جويفل فلا بدَّ أن يكون قد كُلِّف بمهمة أخرىٰ!!

المثال الرابع:
سيد قطب وتنظيم ١٩٦٥م

كانت محنة الإخوان في مصر عام ١٩٥٤م قاسيةً وأليمةً، ولم يجد نظام عبد الناصر أي حرج أو تأنيب ضمير في سجنهم جميعًا -إلا من تمكّن من الفرار والالتجاء إلىٰ بلد آخر من بلاد الله الواسعة-، وعُومِلَ المعتقلون داخل السجون معاملةً في منتهىٰ الهمجية والوحشية. وكان الناس خارج السجن يتناقلون أخبار التعذيب، وسياسة القتل الجماعي، كما حدث في مذبحة (ليمان طره) عام ١٩٥٧م.

امتُحن الإخوان في عهد النظام الملكي البائد مرّات عديدةً، ودبَّر فاروق ومستشاروه قضية اغتيال المرشد الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالىٰ، لكنه لم يتجرّأ -أي فاروق- علىٰ محاكمته رسميًّا، وإصدار حكم الإعدام عليه.. وجاء هذا الأفَّاك -عبد الناصر- فسَنَّ سُنةً جديدةً في القتل والتعذيب، لم تشهدها البلاد العربية من قبل. وجاء العلمانيون الثوريون من الطواغيت العرب، فنهجوا نهج عبد الناصر وزادوا عليه.

توقّفت الأنشطة الإسلامية في هذه الحقبة من تاريخ مصر، وأصبح العمل الإسلاميّ جريمةً، بل هو أشدّ خطورةً من تجارة المخدّرات، إذا كان جماعيًّا، ولن تعد الاعتقالات قاصرةً علىٰ أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، لأن النظام يعتقد بأن العمل الإسلاميّ بشكل عام أرضية خصبة للإخوان، ورافد من روافدهم.

ومع توقّف الأنشطة الإسلامية، تبنّىٰ النظامُ الفكرَ القومي العلماني، وتنكّر عبد الناصر للشعار الإسلاميّ الذي كان يتبجّح به، وسجّله في الكتاب الذي ألّفه، أو كتبه له هيكل بعد انقلاب يوليو ١٩٥٢م، وسمّاه (فلسلفة الثورة)، وأصبحت قصور و (استراحات)

بعض ضباط انقلاب يوليو أكثر فسادًا ومجونًا من قصور (فاروق وأوكاره). ولا أظن أن أحدًا بات يجهل مجون عبد الحكيم عامر، وصلاح نصر ومن لفَّ لفهم. فلا غرابة إذن أن تنفق بضاعة الهدّامين والمفسدين في أرض الكنانة.

كان الشباب الإسلاميّ الذي لا يعرف النظام عنه شيئًا، يتابع هذه الأخبار المفجعة، ويرىٰ أن الخرق قد اتسع علىٰ الواقع، ولا بدَّ من استئناف العمل الإسلاميّ، مهما كانت الظروف. أما حكومة عبد الناصر فلم تعد في نظر هؤلاء الشباب مثل الحكومات السابقة، مع أنهم لا يؤيّدون الحكومات السابقة، ولا يحسنون الظنّ بها، لكن الجديد في هذه الحكومة أنها تتبنىٰ حرب الإسلام والمسلمين بشراسة غير معهودة من قبل، ولهذا كانوا ينظرون إليها نظرةً عدائيةً، ويرون استخدام القوة ضدّها.

بدأ هؤلاء الشباب علىٰ شكل مجموعات، وكل مجموعة ليس لها صلة بالمجموعة الأخرىٰ. أما أهداف الجميع فمتشابهة، لأن معظمهم نشأ في صفوف الإخوان المسلمين، ومع نمو هذه المجموعات المطرد، أدركوا أنه لا بدَّ من الحوار، ودمج المجموعات كلّها في جماعة واحدة، وكان لهم ما أرادوا، لأن هناك أقواسًا مشتركةً تجمع بينهم، حتىٰ في أسلوب العمل وطريقة التنظيم.

وكان لا بدَّ للجماعة الجديدة من قائد يفوقهم خبرةً وتجربةً وعلمًا، ويحترم الأعضاء الشباب قِدَمه في العمل الإسلاميّ، وقدرته علىٰ نقلهم من مرحلة إلىٰ مرحلة أخرىٰ. وعندما عرضوا أنفسهم علىٰ بعض رجال الصف الأول من الإخوان، اعتذروا عن تولي مسئولية هذا المولود الجديد، لأن الظروف غير مناسبة لاستئناف أي عمل إسلامي، وحذّروهم من هذه المغامرة.

وكان الأستاذ سيد قطب يشعر بخطورة الأوضاع التي تمرّ بها مصر، ويدرك أنه لا بدَّ من عمل إسلامي، ولا بدَّ أن يستفيد هذا العمل من أخطاء الماضي، ومن أجل هذا ألّف عددًا من الكتب جسّد فيها هذه المعاني، وكانت أبحاث الظلال، وملازم كتبه تصل إلىٰ أيدي هؤلاء الشباب فيقرءونها، ويستفيدون منها. وفضلاً عن ذلك فقد تأثّرت مجموعة من السجناء بأفكار سيد قطب، فكانوا يكثرون من الجلوس معه، وكان يقرأ عليهم ما يكتبه، ويجيب عن أسئلتهم، كما كان في جلساته الخاصّة معهم يحدّثهم عن أمور كثيرة.

منها: تجاربه وخبراته في الحياة، وهي غنية بالدروس والعبر.

ومنها: مؤامرات أعداء الإسلام: كاليهود والنصارىٰ والشيوعيين وغيرهم، ويشير إلىٰ عملاء هذه القوىٰ العالمية في مصر.

ومنها: سلبيات العمل الإسلاميّ، وفتنة الدعاة بالديمقراطية والاشتراكية التي ينسبونها إلىٰ الإسلام. كما كان يؤكد لهم أن البداية يجب أن تكون بما بدأ به سيد الخلق، ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم، أي بالدعوة إلىٰ وحدانية الله، وعدم الإشراك به أحدًا من خلقه، وكان أقرب هؤلاء الطلبة إلىٰ قلبه، وألصقهم به محمد يوسف هوّاش الذي أُعدم معه [1].

سارع قادة الجماعة الجديدة إلىٰ الاتصال بالأستاذ سيد وهو في السجن، واستمرّت الاتصالات بينهم إلىٰ أن أُفرج عنه عام ١٩٦٤م، فعرضوا عليه أن يكون مسئولاً عنهم، فوافق، مع أنه كان يعلم أن المفاهيم والتصورات الجديدة، التي كان يدعو إليها ليست

(١) أخبرنا بهذه المعلومات بعض هؤلاء المعتقلين الذين كانوا يكثرون من الجلوس مع الأستاذ سيد قطب داخل السجن.

واضحةً عند هذه الجماعة، لكنه كان يأمل في التغيير، وينظر إلىٰ المستقبل بعين التفاؤل.

ومما يجدر ذكره أن إشراف الأستاذ سيد قطب [١] علىٰ هذا العمل كان في عام ١٩٦٤م، واستمرّ بضعة أشهر، بينما كان العشماوي المسئول المباشر، وأحد أهم المؤسّسين عام ١٩٥٧من وكان يعرف مواطن الضعف والقوة في هذه الجماعة. وبعد تولي سيد قطب مهماته الجديدة، كان العشماوي يتردّد عليه، ويرتّب اتصالات إخوان البلاد العربية، الذين كانوا يرغبون بزيارة سيد واستشارته في الأمور التي تخصّ أوضاع العمل الإسلاميّ في بلدانهم. وكان العشماوي يحضر في كثير من الأحيان هذه الجلسات، ويسمع من المتحدّثين معلومات دقيقةً عن الإخوان خارج مصر. وبعض المعلومات لم تكن جديدةً عليه، لأنه مسئول عن الاتصالات الخارجية، وهذه المسئولية أتاحت له معرفة الكثير عن الإخوان.

وفي عام ١٩٥٦م ألقت أجهزة الأمن القبض علىٰ هذه الجماعة وقادتهم، ومن ثم شملت هذه الاعتقالات الإخوان الذين أُفرج عنهم، وعلىٰ الإسلاميين بشكل عام. فكيف توصّلت أجهزة الأمن إلىٰ كشف هذا التنظيم الذي كان سريًّا؟!

يقول المسؤولون عن هذا التنظيم: لم تكن السلطات تعرف شيئًا عن التنظيم، وكانت تبحث عن شيء، فوجدت شيئًا آخر. غير أن محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان السابق ينقل عن عبد الناصر أنه قال له في مؤتمر الدار البيضاء: أن الفضل في كشف هذا التنظيم، يعود إلىٰ زعيم عربي [٢] كان علىٰ خلاف مع عبد الناصر، ومن جهة أخرىٰ كان

(١) مسئولية الأستاذ سيد قطب رحمه الله ليست أكثر من تثقيف وتوجيه وترشيد.

(٢) انظر كتاب: الديمقراطية في الميزان لمؤلفه محمد أحمد محجوب.

عبد الناصر يشير في أحاديثه مع المسئولين عن الاتحاد الاشتراكي إلىٰ وجود تنظيم إسلامي، وأنه أقوىٰ من الاتحاد الاشتراكي.

وكان علي العشماوي من أوائل الذين أُلقي القبض عليهم، وفي بداية التحقيق معه، قال كلّ ما يعرفه عن هذا التنظيم، وهو من غير شك يعرف كلّ شيء عنه. وتطوّع فقدّم معلومات لم يُسْأل عنها، وفوجئ زملاء العشماوي اعترافاته كما فوجئوا بتعاونه مع رجال الأمن والمحقّقين داخل السجن، وعندما كان أحدهم ينكر صلته بالتنظيم أو ينكر واقعةً معيّنةً يستدعي المحّققُ العشماوي ليواجه زميله بكل ما يعرفه معلومات.

والخلاصة كان العشماوي مصيبةً علىٰ زملائه!!

فكيف تمّ ذلك.. وهل كان العشماوي عينًا للسلطة، قبل أن يُكشف التنظيم، أم أنه ضعف عند الابتلاء فانهار، وأراد أن ينقذ نفسه علىٰ أشلاء إخوانه؟! بقيت هذه الأسئلة دون جواب حاسم. ورغم كلّ ما قدمه لأجهزة الأمن، لم يحظَ بالإفراج عنه، وكل الذي قدّموه له، نقلوه إلىٰ العنبر رقم [٥]. ويعيش سكان هذا العنبر حياةً لا تخلو من رفاهية. وشاء الله أن يستمرّ في السجن حتىٰ جاء عهد السادات، وبدأ بالإفراج عن المعتقلين في تنظيم ١٩٦٥م، وبعد الإفراج عنه بقي أمره غامضًا، وكلّ الذي يذكره ضحاياه عنه: اعترافاته، وتعاونه مع أجهزة الأمن.. وفي أوائل عام ١٤١٤هـ فضح العشماوي نفسه عندما أقدم علىٰ نشر ما أسماه مذكرات له في مجلة (المصوّر).

كنت أتابع حلقات مذكرات العشماوي، وبعد الانتهاء من نشرها تجمّعت لدي الملحوظات الآتية:

١-نشر مذكراته في وقت تكالبت السلطة وعملاؤها من الصحفيين وغيرهم علىٰ

الدعاة والجماعات الإسلامية، ولا أعرف حقبةً زمنيةً في تاريخ مصر، تجرّأ العلمانيون علىٰ الإسلام والمسلمين مثل هذه الحقبة. ومن جهة ثانية فقد اختار العشماوي المصوّر وهي من أشدّ الصحف المصرية عداوةً للتيار الإسلاميّ، ونشر فيها هذه المذكرات.

٢- عندما تحدّث عن تجربته مع الإخوان في الخمسينات، ثم عن تجربته في الجماعة، التي كان أحد مؤسّسيها [من ١٩٥٧ إلىٰ ١٩٦٥م] استعرض أسماء الذين كان يعرفهم، وأسماء الذين كانوا مسؤولين عنه، ويكاد لا يترك أحدًا دون تجريح. بل كان يسفّ في الهجوم علىٰ بعضهم، ويذكر أمورًا غير قابلة للتصديق، لأنه انفرد بها. وهو عندنا مجروح العدالة، وكيف نصدّق أن الدعاة الأعلام الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وواجهوا الطاغوت بشجاعة نادرة.. كيف نصدّق أنهم في المستوىٰ الهابط الذي يذكره العشماوي؟! وإذا كان خيرة الدعاة فيهم هذه العيوب والسقطات. فمن بقي من أهل مصر؟! أو ليس لهؤلاء الرجال بعض الإيجابيات، فلماذا لم يذكرها؟!. لقد تجاوز كلّ حدٍّ في الإسفاف عندما اتهم سيد قطب رحمه الله بالكذب وغيره.

٣- كان العشماوي يتحدّث عن مواقف الإخوان، ثم يعقّب علىٰ كلّ موقف بقوله: لم أكن مقتنعًا به. ويخرج في نهاية مذكراته بأنه لم يكن مقتنعًا بشيء، فكيف استمرّ طوال هذه المدة يعيش معهم من غير قناعات؟! وليس أمامنا إلا احتمالان:

- **الأول**: أنه كان عينًا للسلطة عليهم، ولهذا لم يكن مقتنعًا بهم، ولا متأثّراً بتصوراتهم.
- **الثاني**: أن حقده عليهم جعله لا يرىٰ إلا المنكرات، وهذا خُلُق مَن يفجر عند

الخصومة.

٤- قد نجد عذرًا للعشماوي في هجومه علىٰ رفاق دربه، لو أنه شقّ طريقه في العمل الإسلاميّ، وطرح الأفكار والتصورات التي من أجلها خَالفَ الإخوان وغيرهم، لكنه وقف في خندق العلمانيين، وإن لم يكن علمانيًّا.

٥- لم يكن العشماوي مخوَّلاً عندما سافر إلىٰ خارج مصر لشراء أسلحة، وإدخالها إلىٰ مصر عن طريق السودان، وكان عمله هذا تصرُّفًا فرديًّا، استنكره معظم زملائه عند عودته. وقد استغلّ نظام عبد الناصر هذه القضية أبشع استغلال، وكانت مبرّرًا للإعدامات والتعذيب والتنكيل، وهذا سبب خلافه مع الأخ عبد الفتاح إسماعيل رحمه الله، ومن أجل هذا هاجم سيد قطب، وزعم أنه غيَّر موقفه إرضاءً لعبد الفتاح إسماعيل، مع أن قضية الأسلحة كانت قبل أن يوافق سيد قطب علىٰ تولي مهمة الإشراف علىٰ هذه الجماعة.

الجديد في تنظيم ١٩٦٥م، أنّ صفّ هذه الجماعة اختُرق عن طريق المسؤول الأول فيها. وهذا من الأمثلة القليلة النادرة. وعندما تولّىٰ هذا الرجل المسئولية، لم يكن يتوفر فيه أي شرط من شروط أهل الحلّ والعقد. وفضلاً عن ذلك فهو ليس معروفًا أو صاحب خبرة، والبدايات الخاطئة تقود إلىٰ نتائج خاطئة.

المثال الخامس:
تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ

كانت تجربة تأسيس الجبهة الإسلامية للإنقاذ [١] عام ١٩٨٨م من التجارب الفريدة في العالم الإسلاميّ، فالشعب الجزائري ينتظر هذا المولود الجديد بفارغ الصبر، ليكون بديلاً لنظام الحزب الواحد وعساكره الذين أذلوا المواطنين، وكمّموا أفواه الأحرار، وسرقوا خيرات البلد، وأغرقوا الجزائر بأكثر من ٢٦ مليارًا من الدولارات ديونًا، ولهذا قد كان عدد المنضمّين إلىٰ الجبهة الإسلامية -كما صرّح بذلك المسئولون فيها- خلال أشهر قليلة أكثر من مليون عضو، وإذا علمنا أن أعضاء الأحزاب والجماعات هم عادةً من الطبقة المثقفة الواعية أدركنا أن هذا الرقم كبير جدًّا.

أما مؤسّسو الجبهة فقد أصرّوا منذ الخطوة الأولىٰ التي خطوها في طريق تأسيس الجبهة علىٰ تجاوز القيود والعُقَد الحزبية، وأرادوا أن تكون جبهتهم لجميع العاملين للإسلام، ولهذا فقد قبلوا في عضوية الجبهة كلّ مسلم يعرب عن موافقته علىٰ مناهج الجبهة وأهدافها، وساعدهم علىٰ تحقيق هذه السياسة أمران:

- **الأول**: تجربة الأحزاب والجماعات الإسلامية في الجزائر حديثة العهد التي لا تتعدّىٰ عقدين من الزمن، وليس فيها مدارس فكرية تكرّس الخلافات بين الجماعات، فالأهداف والمناهج والتصوّرات متشابهة إلىٰ حدّ كبير.
- **الثاني**: كان معظم الدعاة يردّدون المقولة الآتية: إذا كانت الأهداف والمناهج

---

(١) حديثي عن الجبهة الإسلامية للإنقاذ في هذا الموضوع لا يتجاوز مسألة الانشقاق وذيولها، ولست في صدد تقويم تجربة الجبهة.

والتصورات متشابهةً فما هو مبرّر انقسام الجماعات الإسلامية، ولماذا لا يتوحّد الجميع وينضمّون تحت لواء جماعة واحدة؟! ولماذا نقلّد المنقسمين علىٰ بعضهم في بلدان أخرىٰ؟!

وعندما أعلنت الجبهة عن نفسها، وكانت أول حزب إسلامي حصل علىٰ ترخيص رسمي من الدولة، شعر أكثرية الإسلاميين أن هذه الجبهة تمثل الأفكار التي يدعون إليها، والأماني التي كانوا يتمنّوْنها، فسارعوا إلىٰ الانضمام إليها، وأصبحت الحزب الأول في الجزائر خلال فترة قصيرة.

خاضت الجبهة معركة الانتخابات البلدية والولائية، وحصلت علىٰ الأكثرية، وهذه الانتخابات مقياس لانتخابات مجلس الشعب الوطني -البرلمان-، ونجاح الجبهة في انتخابات البلدية أزعج الدولة وعساكرها كما أزعج المعسكر العلماني وسادتهم خارج الحدود الجزائرية، ودبَّ الهلع في قلوب المنزعجين الذين تجمع بينهم عداوة الإسلام، والخوف الشديد من مجيء حكومة تحكّم شرع الله، ومما لا يخفىٰ عليهم أنهم أول من يجب أن تُقام عليهم الحدود.

وتنفيذًا لمخطط مرسوم بدأت حكومة (حمروش) تتحرّش بالجبهة الإسلامية، فأصدرت قانونًا للانتخابات، حاولت من خلاله الحيلولة دون حصول الجبهة الإسلامية علىٰ الأكثرية في انتخابات المجلس الوطني، ثم أصدرت قانونًا آخر يحدّد عقوبةً لكلّ خطيب وواعظ يتحدّث بأمور سياسية في المساجد، ومن قبل حاولت الحكومة وضع كلّ ما تقدر عليه من عقبات في طريق رؤساء البلديات، وساعدها علىٰ ذلك دور مجلس الشعب الوطني المهيمن علىٰ البلديات.

وأمام هذا التحدّي استخدمت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في: ٢٥/ ٥/ ١٩٩١م حقَّها في الإضراب من أجل إجبار الحكومة علىٰ إلغاء هذه القوانين الظالمة، وكان الإضراب سلميًّا. ومع تجنّب المضربين استخدام أي نوع من أنواع القوة، فقد استغلّ الجيش هذه المناسبة، وزحفت قوات منه إلىٰ العاصمة، واحتلّت شوارعها، وأصدرت قيادة الجيش أمرًا بمنع التجول من الساعة الحادية عشرة مساءً إلىٰ الساعة الثانية والثلث صباحًا، وتطوّر الأمر فأطلقت القوات العسكرية النار علىٰ المضربين، وقتلت وجرحت عددًا غير قليل منهم.

والذي يعنينا هنا أنه بعد بداية الإضراب بأيام سرّبت أجهزة الأمن الجزائرية إلىٰ الصحف ووكالات الأنباء خبر حدوث انشقاق بين أعضاء مجلس شورىٰ الإنقاذ، ثم فوجئ الناس ببعض أعضاء مجلس الشورىٰ يظهرون علىٰ شاشة التلفاز، ويستنكرون لجوء الجبهة إلىٰ الإضراب، ويدّعون أنهم كانوا ضدّ اتخاذ هذا القرار، وحمّلوا عباسي مدني المسئولية كاملة، وقال أحدهم -بشير الفقيه-: لو حكم مدني لأصبح من كبار الطغاة وقتلنا جميعًا.

فهل كان المنشقّون ضدّ قرار الإضراب كما ادّعوا في التلفاز؟ وهل كانوا مجتهدين في موقفهم الذي اتخذوه، أم أن هناك صلات مشبوهةً بينهم وبين السلطة، وهم فيما فعلوا في هذا الظرف العصيب ينفّذون أوامرها؟!

والجواب علىٰ ذلك من وجوه:

الوجه الأول: لو أرادوا كشف الحقيقة وتبرئة أنفسهم مما يحدث، لأصدروا بيانًا ينتقدون فيه الشيخ عباسي مدني ومن شاءوا من قيادة الجبهة، شريطة أن يتضمّن هذا

البيان نقد السلطة، وتحميلها الجزء الأكبر من المسئولية، ويذكرون أمثلةً علىٰ الاستفزازات التي مارستها ضدّ الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ويعدّدون الجرائم التي ارتكبتها، ويؤكّدون علىٰ أن المؤامرة التي تنفّذها الطغمة الحاكمة تستهدف جميع العاملين في الحقل الإسلاميّ، وليست قاصرةً علىٰ جماعة دون جماعة أخرىٰ.

الوجه الثاني: إذا كان عباسي مدني كما وصفه فقيه وزملاؤه، فلماذا سكتوا عنه عامين كاملين، وكانوا خلالها من الناشطين في مجلس شورىٰ الجبهة، ولم يُسمع من أحد منهم نقدًا لمدني ولغيره، وواقع الحال كان يفرض عليهم اعتزال الجبهة حتىٰ لا يُسجّل عليهم أنهم كانوا ينفّذون أوامر الطاغوت -كما زعموا-؟!

الوجه الثالث: لم يهاجم المنشقّون الرجل الثاني في الجبهة الشيخ علي بلحاج، بل نقل بعضهم أنه لم يكن موافقًا علىٰ الإضراب وما رافقه من أحداث وتطورات.

وإذا كان بلحاج ليس متهمًّا عندهم، فقد سمع الذين نثق بدينهم وعدالتهم علي بلحاج يقول: بشير الفقيه كان في مجلس الشورىٰ يتبنّىٰ ضرورة مواجهة السلطة بالقوة، واعتُقل بلحاج وهو في طريقه إلىٰ مبنىٰ التلفاز ليردَّ علىٰ أكاذيب المنشقّين. ومن جهة أخرىٰ فقد كان بلحاج مقتنعًا بالإضراب، وله كتابات سُرّبت من داخل السجن تؤيّد هذه القناعة.

الوجه الرابع: تواترت الأنباء التي تقول: إن أجهزة الأمن كانت تعرف الكثير عن اجتماعات مجلس الشورىٰ عن طريق المنشقّين، وإن وزير الدفاع السابق اللواء خالد نزار قدّم لرئيس الجمهورية محضر اجتماع مجلس الشورىٰ الأخير الذي سبق الإضراب مسجّلاً علىٰ شريط (كاسيت).

ومن أجل مزيد من المعلومات نعود سنتين إلىٰ الوراء من تاريخ وقوع الانشقاق، أي

إلىٰ مرحلة تأسيس الجبهة، فقد استغرب أصدقاء الجبهة ومحبوها مساهمة بعض هؤلاء الناس في تأسيس الجبهة، واختيارهم أعضاء في مجلس الشورىٰ، وقال الأصدقاء للمسؤولين عن الجبهة: إن هؤلاء الناس تدور حولهم الشبهات، ويقال: إنهم كانوا يتعاونون مع أجهزة الأمن أيام حكم الحزب الواحد، فقال المسؤولون كما قال إخوان لهم من قبل في بلدان أخرىٰ: وما يدريك لعلهم تابوا توبةً لو وُزّعت علىٰ أهل الأرض لكفتهم، ولماذا نحاسبهم علىٰ شائعات لا ندري مدىٰ صحتها؟

وردُّ المسؤولين مقبول لو حيل بين هؤلاء الناس وبين مجلس الشورىٰ أو حيل بينهم وبين تولي مسئوليات في الجبهة، وواقع الحال أنهم كانوا في مجلس الشورىٰ، وتولوا مسؤوليات أخرىٰ تمكّنهم من تمثيل الجبهة والتحدّث باسمها، وأحدهم كان يقابل ملوكًا ورؤساء، ويتحدّث باسم الجبهة، والجبهة لم تمنحه هذا الحق، وعندما يُوجَّه إليه نقد حول هذه المسألة كان يقول: إنها زيارة شخصية!!

كثر الكلام حولهم، واستاء الناس من تصرفات بعضهم، وأظن أن قيادة الجبهة كانت تنتظر الفرصة المناسبة، ولا تريد إثارة زوبعة قبل انتخابات مجلس الشعب الوطني.

نعود إلىٰ تطور الأحداث:

هيّأت السلطة للمنشقّين الفرصة المناسبة للتحرّك والسيطرة علىٰ الجبهة عندما قامت باعتقال قيادة الإنقاذ، وخلال هذه الفترة كان المنشقّون يصدرون البيانات، ويوزّعون الاتهامات، ويعدّون الاجتماعات.

وحسم مسؤولو المجالس الولائية الفوضىٰ التي أسفرت عن اعتقال القيادة، عندما اجتمعوا في مدينة باتنة، وانتخبوا قيادةً مؤقتةً جديدةً، ولقد وفّق الله المسؤول الأول في

هذه القيادة الجديدة الأستاذ عبد القادر حشّاني، وسدّد خطاه، فسار بالجبهة سيرًا حكيمًا، فلقد تمكّن من ضبط الأمور في ظروف كانت شديدة الحساسية والتعقيد، وقطع بحنكته الطريق أما أجهزة الأمن التي كانت ترمي إلىٰ إشاعة الفوضىٰ من خلال اعتقالها لقيادة الجبهة في الشدائد.

أما المنشقّون فأيقنوا بأن أوراقهم أصبحت مكشوفةً، ويستحيل علىٰ مثلهم اختراق الجبهة أو شقّها مهما قدّمت السلطة لهم من مساعدات، وليس أمامهم إلا أن يلزموا بيوتهم، ويضبطوا تصرفاتهم، وإلا فسوف تكون عاقبتهم وخيمةً، وزعم بعضهم أنه قد جاءته تهديدات بالقتل، فارتعدت فرائصهم وخارت قواهم.

وبقيت السلطة حتىٰ آخر لحظة تحاول استغلال هؤلاء العملاء، فوقع اختيارهم علىٰ واحد منهم ليكون وزيرًا في حكومة (غزالي)، ولم يكن هذا الوزير من الذين ظهروا علىٰ شاشة التلفاز، لكنه لا يختلف عنهم، ولا أدري ماذا سيفعل هذا الوزير في حكومة مجرمة جاء بها الجنرالات لسحق إخوانه، ولتبديد كلّ أمل بإقامة حكومة إسلامية تُحكِّم شرع الله في الجزائر.

ووقع اختيار غزالي أيضًا علىٰ شخص آخر من هؤلاء المنشقّين ليكون مستشارًا له، أو ليقدّم له تقارير ودراسات عن الجبهة الإسلامية ونقاط الضعف فيها، وكيف توجّه السلطة لها ضربات قاضيةً. وأخيرًا ذهب غزالي بعد أن استمرّت حكومته سنةً كاملةً، وذهب معه الوزير والمستشار، ومما اعتاده الطغاة: استغلال المنافقين المحسوبين علىٰ الصف الإسلاميّ، ووضعهم في مناصب حكومية ما داموا قادرين علىٰ إلحاق الأذىٰ بالدعاة والجماعات الإسلامية، فإن أصابهم العجز، أصبحوا غير قادرين علىٰ تقديم

أشياء مهمة استغنوا عن خدماتهم، ولفظوهم كما تُلفظ الجيفة، وابتعد الناس عنها حتىٰ لا تؤذيهم رائحتها النتنة.

ذهب غزالي وحكومته، وكان يظن أنه لن يذهب خلال عام واحد، وذهبت آماله الموهومة بإصلاح الاقتصاد الجزائري، وذهب من قبله: ابن بيلا، وبومدين، وبوتفليقة، وابن جديد، وحمروش، وذهب بعده: بوضياف بأحلامه الكثيرة. ويقول أهل بيته: قتله الذين جاءوا به إلىٰ الحكم. وذهب عبد السلام بلعيد الذي كان يتطّلع إلىٰ منصب رئاسة الجمهورية، وسيذهب الجنرالات وغيرهم من رموز الطغيان والاستبداد، ويذهب معهم العملاء والمنافقون، ويبقىٰ الإسلام: دين الأمة، وعنوان عزّها ومجدها، وهنيئًا لمن أخلص النية لله جل وعلا، وناله الأذىٰ من أجل إعلاء كلمة الله [1] ونصرة دينه.

(١) لم يكن المنشقّون سواءً من حيث الانحراف، فمنهم هؤلاء الذين ساروا إلىٰ نهاية الشوط في خدمة النظام، ومنهم من اعتزل الناس وانصرف لأمور دنياه.

المثال السادس:
أحداث نيويورك

أقدم مجهولون علىٰ تفجير المركز التجاري العالمي في مدينة (نيويورك) بتاريخ ٢٦/ ٢/ ١٩٩٣م، وأسفرت الخسائر البشرية عن ستة قتلىٰ وألف جريح، وبعد أيام وقوع هذا التفجير ألقت أجهزة الأمن الأمريكية القبض علىٰ الذين زعمت أنهم نفّذوا هذه العملية، وهم -علىٰ حدّ قولها- من الأصوليين الذين ينتمون إلىٰ جنسيات عربية مختلفة.

وفي ٢٤/ ٦/ ١٩٩٣م ألقىٰ مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك القبض علىٰ ثمانية أشخاص بينهم خمسة سودانيين. وقال مسؤولون أمريكان: إن المتّهمين وضعوا خطة الاغتيال الرئيس المصري خلال زيارته لأمريكا، واغتيال الأمين العام للمنظمة الدولية، والسناتور الأمريكي (الفونس داماتو) المؤيد لإسرائيل، كما وضعوا خطةً لنسف مقرّ الأمم المتحدة، ومكتب التحقيقات الفيدرالي.

ورافق هذين الحدثين حملةُ تشهير واسعة ضدّ الإسلام والمسلمين من خلال هجومهم السافر علىٰ المتّهمين والشيخ عمر عبد الرحمن، وعلىٰ المراكز الإسلامية في أمريكا ودول أوربا الغربية، وتصويرها علىٰ أنها مراكز للتطرّف والإرهاب. وهجومهم أيضًا علىٰ الجماعات الإسلامية وقادتها في أي مكان من المعمورة، تعيش وتعمل فيه هذه الجماعات، بل وهجومهم علىٰ الإسلام بالذات، لأنهم يسمون الجهاد الشرعي تطرّفًا وإرهابًا، ويرون أن دين الإسلام ليس له صلة بالسياسة وشؤون الحكم كغيره من الأديان الأخرىٰ.

وحملت لواء الحملة الظالمة وسائل الإعلام الأمريكية والعربية، لأن عدوّ الطرفين واحد: فوسائل الإعلام الأمريكية لم تنتظر حكم القضاء، ولم تكتف بنقل ما يقوله القضاة والمحقّقون في مكتب التحقيقات الفيدرالي، والمسؤولون في الإدارة الأمريكية، بل أصبحت هذه الوسائل -التي يحرّكها ويتلاعب بها اليهود- توزّع التُهم، وتنقل التصريحات عن مصادر أمريكية تسميها مسؤولةً، لكنها مجهولة، ولن يحاسب رجال الصحافة أحد علىٰ ما يفترون، لأنهم لا يذكرون اسم المصدر الذي أخذوا عنه، وما تنشره صحف واشنطن يُعاد نشره في صحف الدولة في القاهرة، ويُضاف إليها ما تجود به أخيلة صحفيي السلطة من أكاذيب واتهامات ملفقة، ولو كان المتهمون من غير المسلمين لوقفت وسائل الإعلام الأمريكية موقفًا حياديًّا علىٰ الأقل، ولو كانوا يهودًا لدافعت عنهم بكل ما تملكه من وسائل وإمكانات، ومثل هذا الموقف المنحاز يتكرّر عند وسائل الإعلام الأمريكية وغير الأمريكية في كلّ مسألة يكون الإسلام والمسلمون طرفًا فيها.

ومن الأمثلة علىٰ انحيازهم الممجوج ما قالوه عن كيفية دخول الشيخ عمر عبد الرحمن إلىٰ أمريكا:

فمرّة قالوا: لم يكن لدىٰ الموظف المسؤول في السفارة الأمريكية جهاز (كمبيوتر)، ولهذا لم يعرف من هو الشيخ ومن الذين يمثّلهم، ولا أدري من يصدّق هذا الادّعاء؟، فالإدارة الأمريكية متشنجة من حكومة الإنقاذ في الخرطوم، ولا تدّخر وسعًا في تجميع مختلف فصول المعارضة ضدّها.. فكيف تترك سفارتها بدون جهاز (كمبيوتر)؟! وإذا سلّمنا بوقوع مثل هذا الخطأ في الخرطوم، فهل تكرّر الخطأ نفسه عندما غادر الشيخ الولايات المتحدة أكثر من مرّة ثم عاد إليها؟! وإذا كان جهاز مخابراتها متخلّفًا جدًّا

فكيف أعرضت عن نصائح السلطة المصرية وأهملت المعلومات التي تقدّمت بها عن الشيخ؟!

ومرّةً أخرىٰ نقلت بعض هذه الصحف عن مسؤول أمريكي لم يذكروا اسمه – مجهول- بأن الشيخ عمر عبد الرحمن عميل للمخابرات الأمريكية، واستغلّت صحف واشنطن والقاهرة، والصحف العربية الصادرة في ديار الغرب هذا الخبر أبشع استغلال، مع أنه منقول عن مصدر مجهول، فتساءلت بعض هذه الصحف عن سبب وجود المراكز الإسلامية، وهي أول من يعلم ماذا تقدّم هذه المراكز من خدمات للجالية الإسلامية، ولو كانت مراكز تبشيريةً صليبيةً لما أشارت إليها بكلمة سوء حتىٰ لا تُغضب النصارىٰ، وعرّجت علىٰ إقامة بعض رموز الجماعات الإسلامية في ديار الغرب، ولا أظنها تجهل أن هذه الرموز لم تجد موضع قدم في بلدانها وفي غير هذه البلدان، فاستفادت من احترام البلدان الغبية لقوانينهم وأنظمتهم، وتطبيقها علىٰ مسألة اللجوء السياسي، وأشارت إلىٰ بعض اللقاءات التي تمّت بين مسؤولين في الإدارة الأمريكية وبعض الشخصيات الإسلامية بناءً علىٰ طلب الأمريكان، لأنهم يريدون تجميع معلومات عن الجماعات الإسلامية، ويحرصون في تجميعهم لهذه المعلومات ألا يكونوا عالةً علىٰ بعض أجهزة المخابرات العربية، وليست العبرة بهذه اللقاءات بل بما أسفر عنها، ومن الأمثلة علىٰ ذلك زيارة الدكتور حسن الترابي الأخيرة للولايات المتحدة الأمريكية وكندا، والمحادثات التي جرت بينه وبين عدد من المسؤولين الأمريكان منهم أعضاء (الكونجرس) فماذا أسفر عن هذه اللقاءات؟!

تضاعف حقد الأمريكان علىٰ الجبهة القومية الإسلامية وعلىٰ حكومة الإنقاذ في

السودان، ونشطت واشنطن في تجميع المعارضة، وعقدت لهم ندوات في أمريكا، ثم أدرجت –ظلمًا وعدوانًا– اسم السودان في قائمة الدول التي ترعىٰ الإرهاب دون ذكر أسباب مقنعة، وكان من أوائل الذين ردّوا علىٰ الإدارة الأمريكية الرئيس الأمريكي الأسبق (جيمي كارتر)، لأنه من المطّلعين علىٰ الشؤون السودانية، ويعلم أن حكومة الإنقاذ ليست إرهابيةً، ولا ترعىٰ الإرهاب، ومن المؤسف أن هذه الصحف تمسّكت بلقاء الترابي وإخوانه السودانيين مع المسؤولين الأمريكان وصمتت عن النتائج التي أسفرت عنها مثل هذه اللقاءات.

وبعد هذه الضجّة المفتعلة أنكرت وكالة المخابرات الأمريكية في تصريح لها أن يكون لها أيّ علاقة مع الشيخ عمر عبد الرحمن، ونحن ما كنا ننتظر صدور مثل هذا الإنكار، لأننا نعلم علم اليقين بأن العلماء العاملين والدعاة الصادقين يستحيل ارتباطهم بجهاز مخابرات يعمل لخدمة أعداء الإسلام، وكيف يتصوّر منصف ينشد الحق أن الرجال الذين استسهلوا الصعب في سبيل الله، وآثروا السجن علىٰ المداهنة، والغربة وخشونة العيش علىٰ الذلّ والسكوت عن إنكار المنكر.. كيف يتصور هذا المنصف ارتباطهم بجهاز من أجهزة أعداء الإسلام وهم الذين يُدرسِّون الناس ويعلّمونهم بأنه لا يجتمع في قلب مؤمن حب الله وخدمة دينه، وحبّ الشيطان وخدمة دينه، ويدرّسونهم أيضًا بأن الارتباط بأجهزة مخابرات العدوّ خيانة تصل إلىٰ حدّ الكفر والردّة عن الإسلام.

ومن يقلّب صفحات تاريخنا الحديث يعلم أن بعض البلدان العربية اكتشفت أجهزة تجسّس لحساب إسرائيل والدول الغربية، وكان الذين يتجسّسون من الذين لا يختلفون في أخلاقهم وعاداتهم عن أخلاق وعادات أعدائنا، كانوا من السكارىٰ والعلمانيين

والقوميين الثوريين والطائفيين الحاقدين علىٰ المسلمين، ولم يحدث ولو مرّةً واحدةً أن المتجسّسين كانوا من العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية.

والشاهد في ما نكتبه عن أحداث نيويورك أن مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد إلقائه القبض علىٰ المجموعة الثانية كان لابد أن يقدّم قرائن تديّنهم.. وهاهنا بدأ يبرز دور الضابط السابق في الجيش المصري الذي كان ولا يزال يعمل لحساب المباحث الفيدرالية الأمريكية، قال رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي في نيويورك (جيمس فوكس) في حديث له مع الصحفيين: (إن إحدىٰ المزايا للمحقّقين كانت وجود شخص لمساعدتنا في متابعة الموقف، أما الميزة الأكبر فكانت ثقة صدّيق علي بالمخبر)، وجاء في وثيقة الشكوىٰ:

(إن صدّيق علي كان يأخذ المخبر السري معه إلىٰ كلّ مكان يذهب إليه: ذهب معه في رحلة إلىٰ فيلادلفيا لشراء متفجّرات، وفي زيارة إلىٰ مانهاتن حيث جرىٰ البحث في نسف نفق (لنكولن)، وإلىٰ ضاحية (يونكرز) في مدينة نيويورك للقاء المشاركين في المؤامرة).

وتقول مصادر الجالية الإسلامية في نيويورك: ظهر عماد سالم في نيويورك وجيرزي سيتي فجأةً في أثناء محاكمة (سيد نصير) المتّهم باغتيال الحاخام المتطرّف (مائير كاهانا) عام ١٩٩٠م، ولم يكن معروفًا من قبل في هذا الوسط، وكان حريصًا علىٰ نيل ثقة الجالية الإسلامية وعلىٰ الظهور قدر المستطاع، وقالت مصادر أخرىٰ بينها مصري نشيط في المراكز الإسلامية: إن عماد سالم حاول تحريض بعض المهاجرين المصريين علىٰ ممارسة أي عمل لتأديب الولايات المتحدة، وذلك إثر تفجير مبنىٰ مركز التجارة العالمي، وأفادت مصادر قريبة من الشيخ عمر عبد الرحمن أن عماد سالم كان قريبًا جدًّا

من الشيخ مما استبعد شكوك البعض فيه، وقد ظهر سالم في أكثر من صورة نُشرت في الصحف أو عبر شبكات التلفزيون الأمريكية وهو يشارك في التظاهرات أو يقف إلىٰ جوار الشيخ عمر تمهيدًا لعرض خدماته علىٰ الأجهزة الأمنية الأمريكية.

وقال محامي الشيخ عبد الرحمن (مايكل وارن) بعد أن اطّلع علىٰ بعض الأشرطة التي قام العميل بتسجيلها: (إنه –أي: عماد سالم– يحاول نهش الشيخ، وهو ليس إلا مجرد كلب.. وقال: إن سالم حصل علىٰ [٥٠٠] ألف دولار من أجل الإيقاع بالشيخ، وأنه سيحصل علىٰ مبلغ آخر، وأضاف: إن مصداقية هذا الرجل لا تزن مثقال ذرة، ومن الواضح أنه المسؤول المباشر الوحيد لكل ما زعم أنه حدث).

بلغ عدد الأشرطة التي سجّلها عماد سالم علىٰ ضحاياه حوالي مائةً وخمسين شريطًا، ومعظمها يأتي كجواب علىٰ أسئلة محدّدة يطرحها علىٰ المتّهمين، وما كان هذا العميل ينفرد بالتجسّس والتسجيل. قالت صحيفة (صنداي تايمز) [٢٧/ ٦/ ١٩٩٣م]: إن مكتب التحقيقات الفيدرالي كان يقوم بتسجيل كلّ محادثة هاتفية، وبتصوير اللقاءات عبر كاميرات مخفية.

مصادر المتّهمين ومحاموهم ينفون ما نُسِبَ إليهم، ويقولون: إن نتائج المحاكمة سوف تكشف براءتهم، أما صناعة القنابل فيقولون: كنا سنستخدمها في البوسنة والهرسك لعدم توفّر السلاح بأيدي المسلمين هناك. ويقول محامو المتّهمين: أول ما يجب أن يُحَاكم هو عماد سالم لأكثر من سبب:

منها: أنه هو الذي أقنع المتّهمين بتصنيع القنابل، وكان يعلّمهم كيف يصنعونها بحكم خبرته السابقة في الجيش.

ومنها: أنه كان يصطحب ضحاياه إلىٰ النفق، ويدرّبهم علىٰ طريقة نسفه، ثم يسجل كلّ صغيرة وكبيرة بشريط فيديو، وكان بعضهم يفهم من هذا التدريب الاستعداد لضرب منشآت الصرب.

ومنها: أنه هو الذي استأجر المخزن الذي كانوا يصنعون فيه القنابل وضُبطوا فيه.

ومنها: أنه منذ ظهوره بين الجالية الإسلامية في نيويورك، وهو يحرّض من يعرفهم من الجالية المصرية وغيرها من الجاليات الأخرىٰ علىٰ ممارسة أي عمل ضدّ الولايات المتحدة، ومما ينبغي التأكيد عليه أن قوانين الولايات المتحدة لا تسمح بهذا النوع من الاستدراج والتحريض علىٰ أعمال العنف، ولو كان المستدرج يعمل لحساب أجهزة الأمن الأمريكية.

كيف نستفيد من أحداث نيويورك؟!

مخطئ من يظن أن عماد سالم هو الجاسوس الأول أو الأخير الذي جنّدته المباحث أو وكالات المخابرات الأمريكية، ولكنه الجاسوس الوحيد الذي شاءت المباحث الأمريكية ذكر اسمه، لأن كلّ ما لديها من أدلة ضدّ المتّهمين هي من صنعه.

يقول أحد الناشطين الإسلاميين في مسجد السلام في مدينة جريزي -نيويورك- لصحيفة الحياة [العدد تاريخ: ٢٦/ ٦/ ١٩٩٣م]: (إن المسلمين في المدينة يعرفون مصريين يتعاملون مع أجهزة المخابرات، وهم يعرفون أننا نعرفهم، ولكن من المؤكد أنه يوجد آخرون لا نعرفهم) اهـ.

ومهمّة عماد سالم لم تكن مستحيلةً، بل وليست صعبةً، فلحية مثل لحيته لا تحتاج

لأكثر من شهر، وهو يملك بعض أدوات الجهاد، لأنه كان ضابطًا في الجيش المصري، وبرتبة مقدّم إذا صحت روايته أو رواية الذين يعرفونه، وكلّ من ينتمي للإسلام يستطيع أن يتحدّث بما يعرفه عن هذا الدين ويتظاهر بالحماسة له، وبذل الغالي والنفيس في سبيله، ومن جهة أخرىٰ فروّاد مسجد السلام من جنسيات ونوعيات مختلفة، وأكثرهم من العمال والطلبة.

والأمريكان ودول أوربا الغربية يحرصون هذه الأيام علىٰ تجنيد جواسيس من أمثال عماد سالم، ومن يتابع تصريحات المسؤولين فيهم يراهم يكرّرون القول: إن معركتهم بعد انهيار المعسكر الشيوعي مع الأصولية والتطرّف، أي مع الإسلام، أما بعض أساتذة جامعاتهم الذين يقدّمون للمسؤولين دراسات وأبحاثًا سياسيةً فلا يجدون حرجًا من القول: إن معركة الغرب مع الإسلام دون لفّ ولا دوران، حيث لا صفة رسمية لهم تمنعهم من تسمية الأمور بأسمائها.

وهم لا شك يستعدّون لهذه المعركة، ويعرفون بأن الجماعات الإسلامية هي التي تتبنىٰ وتعمل من أجل تطبيق كافة أحكامه، ولهذا فهي تدرك بأن هذه الجماعات هي مصدر الخطر، وأول ما يحتاجه الأمريكان جمع أقصىٰ ما يقدرون عليه من معلومات، فعندما اعترضت جهات مصرية مسؤولة علىٰ اتصالات رسمية جرت بين مسؤولين في السفارة الأمريكية في القاهرة وبين إحدىٰ الجماعات الإسلامية، قال الأمريكان لأصدقائهم: عندنا نقص كبير في المعلومات عن الجماعات الإسلامية، ونريد من وراء هذه الاتصالات تغطية هذا النقص، أما التعاون معهم فغير وارد عندنا.

ومن أجل جمع المعلومات، وتجنيد الجواسيس أصبحت هذه الدول تتساهل في

قبول اللاجئين السياسيين، وخاصّةً الإخوة العرب الذين كانوا يجاهدون في أفغانستان، وبعضهم عندما يحصلون علىٰ اللجوء يتحرّكون بحرّية كاملة، وهم يظنون أن الحبل متروك علىٰ الغارب لهم، ولكن عندما تصل الأمور إلىٰ حدّ لا ينبغي السكوت عنه، يُستدعَون من قبل أجهزة الأمن، وأثناء التحقيق معهم، يفاجئهم المسؤولون عن التحقيق بأمور كثيرة كانوا يظنّونها من الأسرار الدفينة.

ألا فليعلم الإخوة أن هناك تشابهًا بين هذه البلدان وبلداننا، غير أن الأمور هنا مغلّفة بغلاف ديمقراطيّ، لكنها ليست سائبةً، وأجهزة المراقبة والتصنّت تتناسب مع تقدّم هذه البلدان، وقد مرّ معنا فيما مضىٰ أن مكتب التحقيقات الفيدرالي كان يقوم بتسجيل كلّ محادثة هاتفية، كما كان يقوم بتصوير اللقاءات بواسطة كاميرات مخفية. والجدير بالاهتمام أن أجهزة المخابرات الغربية منذ حرب الخليج تحاول استغلال ظروف الطلبة واللاجئين السياسيين، وتعرض عليهم المغريات من أجل تجنيدهم في خدمة أجهزتها.

إن المسلمين الصادقين يأبىٰ عليهم دينهم السقوط في هذه الأوحال، ومن غير المعقول أن يفرّ بعض الدعاة من الظالمين ويسقطون بما هو أشدّ!!، فليحذر الأخوة من الكفر والردّة، وليعلموا أن السجون في بلدانهم علىٰ ما فيها من قسوة وامتهان أفضل من العمل الذي يختاره أمثال عماد سالم.

ولا بدَّ أن يحيط أصحاب الخبرة من الدعاة إخوانهم بالرعاية والنصح والعطف والمودّة، ويحذّرونهم من مغريات الشيطان وحزبه، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

الفصل الرابع: الإسلاميون وأجهزة الأمن

قبل نصف قرن كانت أجهزة الأمن في بلادنا بدائيةً ومحدودة الأثر والأهمية، لأن المواطنين كانوا يتمتّعون بقسط وافر من الحرية، ولم يكن من المستغرب أن ينتقد خطيب أو صحيفة أو أحد العاملين في المجالات السياسية رئيس الحكومة أو أحد الوزراء، أو أن يهاجم قرارًا اتخذته الدولة. وفي ظل الأجواء التي يستطيع فيها المواطن التعبير عن آرائه ومواقفه يضعف دور الجواسيس والأجهزة التي ينتسبون إليها.

وبعد انتشار وباء الانقلابات العسكرية تطوّرت أجهزة الأمن، وتعدّدت أقسامها وفروعها تعدّدًا يتناسب مع اختصاصاتها، وأحيانًا تتعدّد الأجهزة دون أن تتعدّد الاختصاصات بقصد المنافسة. وهكذا أصبحنا نسمع عن أسماء مؤسسات وأجهزة كثيرة تعمل ضمن هذا الإطار: فمن المباحث العامة، إلىٰ المخابرات العامة [بفرعيها الداخلي والخارجي]، إلىٰ الاستخبارات العسكرية، إلىٰ جهاز التجسّس المركزي الذي يتبع رئيس النظام، ويهيمن هذا الجهاز –الذي ليس له اسم– علىٰ كافّة الأجهزة. وعندما أعياهم ابتكار الأسماء والمسمّيات صاروا يرمزون لهذه الأجهزة بالأرقام: كقولهم: الجهاز رقم [٢٥]، والجهاز رقم [٧١]، وهكذا، ويكفي ذكر رقم من هذه الأرقام حتىٰ يدبّ الرعب والهلع في قلوب المواطنين.

وفي ظل هذه الأجهزة التي تتمتّع بنفوذ واسع، يفقد الصغير والكبير الأمن والاستقرار والطمأنينة، ويشعر كلّ مواطن أن هناك من يتتبعه ويراقبه أينما ذهب، وقد يكون الذي يراقبه ويكتب عنه من أقرب أقربائه أو من أصدق أصدقائه.

وانطلاقًا من قناعة هذه الأجهزة –أجهزة التجسّس– بخطورة تنامي المدّ الإسلاميّ، فقد أنشأت في كلّ جهاز قسمًا مهمته مكافحة الدعاة والجماعات الإسلامية، ومن مجالات أنشطة هذا القسم ما يأتي:

١- تجميع أقصىٰ ما يستطيعون من معلومات وتقارير عن العلماء العاملين، والدعاة المؤثّرين، والجماعات الإسلامية الطيبة المستقلة، وتخزينها في قسم خاص يسمونه: قسم المحفوظات [أو الأرشيف]، وتمكّنوا من تطوير هذا القسم، حيث أصبحت المعلومات والتقارير تُخَزّن في الحاسب الآلي وغيره من وسائل التقنية الحديثة.

٢- مراقبة من يشتبهون به، وما أكثر الذين يشتبهون بهم لأتفه الأسباب!!، وينتهي هذه المراقبة في معظم الحالات باعتقال الضحية، والتحقيق معه، والتحقيق عندهم يعني ممارسة أفظع أنواع التعذيب مع التّهم في أكثر الحالات.

ويمثّل بعض المحقّقين مع الضحية دور الرجال الأتقياء الصالحين، فيتدخّل أحدهم بعد المرحلة الأولىٰ من التعذيب الذي لا يُطاق، ويبعد زملاءه الأشدّاء الوحوش، ثم ينفرد بالمُتَّهم ويلاطفه، ويأمر له بالقهوة والشاي، ثم يختم هذه المجاملة بقوله:لا أستطيع مرّةً ثانيةً التدخّل، ومنعهم من تعذيبك، وليس أمامك إلا الاعتراف لتنقذ نفسك من هؤلاء المجرمين القساة، وسوف أساعدك إذا اعترفت، وسأعمل جهدي من أجل الإفراج عنك.

المُتّهم يعلم جيّدًا أن الأتقياء الصالحين لا يعملون في قسم متخصّص بمطاردة العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية والتنكيل بهم، ولا يغترّ بكلامه الليّن، وأسلوبه الهادئ

الذي لا يخالطه عنف ولا تهديد، ولكنه –أي المُتّهم – مضّطر إلىٰ التعاون معه، لعل هذا التعاون ينقذه من سياط الجلاّدين.

٣-يكتسب موظفو هذا القسم خبرةً واسعةً في شؤون الجماعات والأنشطة الإسلامية، وتتجمّع عندهم معلومات كثيرة، وبشكل خاص عن المرضىٰ وضعاف النفوس الذين انتسبوا إلىٰ بعض الجماعات وهي في أوج قوّتها، وكانوا في انتسابهم مثل مهاجر أم قيس.

ويسهل علىٰ موظفي هذا القسم اختراق الصفّ الإسلاميّ عن طريق ضعاف النفوس، أو عن طريق الذين أُفرج عنهم بعد التحقيق، وأصبحوا يشعرون بأنهم مدينون بالفضل للرجال الأتقياء الصالحين الذين تدخّلوا وقت الشدّة، ونجحوا في إنقاذ المُتّهم من التعذيب والاعتقال.

يقوم الرجال الذين يمثّلون دور الأتقياء الصالحين بتنظيم زيارات وإقامة علاقات مع الذين يقدّرون أنه سيخترقون الصفّ الإسلاميّ عن طريقهم، ويستخدمون معهم أسلوب التهديد والوعيد، وقد يحصلون علىٰ معلومات قليلة من عملاء قدامىٰ، فيستثمرونها، ويذكرونها عند العناصر الجديدة التي قرّروا اختراق العمل الإسلاميّ عن طريقها، ويوهمونهم بأنهم يعرفون كلّ شيء فيصدّق هؤلاء زعمهم، ويقدّمون لهم معلومات مهمّةً، وهم يظنّون بأن الذي قالوه غير مجهول عند رجال الأمن وعند غيرهم، ولا داعي لكتمانه.

أما الذين انتسبوا إلىٰ بعض الجماعات الإسلامية، طمعًا بمكاسب ومناصب دنيوية، فيقدّمون إليهم ما فقدوه، ومن هنا نعلم إلىٰ أيّ درك هبط المنسوبون للدعوة الذين جرىٰ

تعيينهم بوظائف قيادية مرموقة.

٤- قلت في الفترة الثالثة: إن العاملين في قسم مكافحة الجماعات والأنشطة الإسلامية تتجمّع عندهم معلومات كثيرة وكثيفة عن كلّ جماعة من الجماعات الإسلامية، وعن أسلوبها، منهجها، وخططها.

ومن أجل الاستفادة من هذه المعلومات فقد أنشأوا دورات لعملائهم المكلّفين باختراق الصفّ الإسلاميّ، ومن المواد التي تُدرّس في هذه الدورات: العلوم الشرعيّة، والسياسية، والتاريخية، والأفكار التي تنادي بها كلّ جماعة، وما الذي يميّزها عن الجماعات الأخرىٰ، وبعض العملاء لا تكفيهم مثل هذه الدورات، ولهذا ينظّم لهم المسئولون عنهم أمر الانتساب إلىٰ كليات الحديث، والشريعة، وأصول الدين، ويعملون بعد التخرج خطباء ووعّاظ ومدرّسين، وهذه هي المصيبة.

ومما يَكلَم الفؤاد أن بعض هؤلاء يصلون إلىٰ مراكز قيادية في العمل الإسلاميّ، ويشغلون الناس بخلافات ليس لها أول من آخر، وبعد عقد أو عقود من الزمن يعرف الناس أن فلانًا الذي صنع مشكلةً استعصت علىٰ الحلّ في الجماعة الفلانية، وفلانًا الذي فجّر فتنةً بين جماعته التي كان يتظاهر بالانتساب إليها، وجماعة أخرىٰ، هما من عناصر الأمن التي تمكّنت من اختراق الصفّ الإسلاميّ، ولكن هذا الاكتشاف يأتي بعد فوات الأوان.

من هنا نعلـم:

- كيف استطاع جمال عبد الناصر ضرب جماعة الإخوان المسلمين؟ وما كان قادرًا علىٰ تحقيق هذا الإنجاز لولا انتسابه السابق لهذه الجماعة، ومعرفته للعناصر التي

يستطيع من خلالها اختراق الجماعة.

- وكيف وصل أبو عبد الله الجسري إلىٰ مركز قياديّ في الطليعة، وكيف خدع من حوله بما كان يتظاهر به من تقوىٰ وورع؟!

-وكيف استطاع عماد سالم عميل المباحث الأمريكية استدراج مجموعة من الشباب الإسلاميّ، وقدّمهم لقمةً سائغةً لأعداء الله مقابل نصف مليون من الدولارات؟!

ومن أجل تسهيل فهم ما سبق الحديث عنه عن دور رجال الأمن، وأساليبهم الحديثة نختار الأمثلة الآتية:

المثال الأول:

عندما كنت أعيش في بلد عربي، وقع لي حادث سرقة، وذهب صديق لي ليخبر أقرب مخفر شرطة عن وقوع الحادث، وعاد الصديق بعد قليل من الوقت ومعه رجل شدّني مظهره، وحسن التزامه بالسُّنة، لقد وجدت نفسي أمام رجل أطلق لحيته، وفي فمه مسواك ويلبس ثوبًا إلىٰ منتصف ساقه، وآخر ما كنت أتصوّره وأفكّر فيه أن يكون هذا الرجل هو المسؤول عن المباحث الجنائية في هذا المخفر.

بدأ الرجل بعد وصوله يسجّل الأضرار الناجمة عن الحادث، وأخذ (البصمات) التي تركها اللص علىٰ النافذة التي حطّمها، وعلىٰ غيرها من الأغراض التي يظنّ أنه لمسها بيديه، ولا أكتم القارئ الكريم أن مظهر رجل المباحث كان عندي أهم من حادث السرقة، وما خسرته من ورائه، لا سيما وأن السلطة في البلد الذي وقع فيه الحادث لا تسمح لرجال الجيش والأمن بإعفاء اللحية.

المثال الثاني:

في المخابرات الليبية قسم يسمونه (التصفية الجسدية)، وهو من أهم إنجازات القذافي، ويحتلّ هذا القسم المرتبة الثانية بعد الكتاب الأخضر. والإسلاميون هم المتضرّرون من أنشطة هذا القسم الهدّامة، وقد قُتل عدد غير قليل منهم في عهد هذا الطاغية:

ومن أساليب المجرمين في هذا القسم أنهم: يلتزمون السُّنة النبوية في مظهرهم، وينتقلون بين الأماكن التي يرتادها الإسلاميون الليبيون الذين فرّوا من بلدهم، لأنهم باتوا لا يأمنون علىٰ أنفسهم، فأحد رجال هذا القسم قد يمكث فترةً في بيشاور أو إيطاليا أو أمريكا، وتكون هذه الفترة كافيةً لجمع معلومات عن الليبيين في المكان الذي أقام فيه، ويكثر من التردّد علىٰ شركات الخطوط الجوية، وفي أحدها قد يجد ليبيًّا يريد السفر إلىٰ مكة للعمرة أو للحج فيحجز الجاسوس في اليوم نفسه الذي يحجز فيه الداعية، وربما اختار المقعد المجاور له، ويفرح الداعية بهذه الصُّحبة، وينخدع بمظهر الجاسوس الإسلاميّ.

وفي مكة أو المدينة يعرف الداعية أصحابه علىٰ زميله، والأصحاب يتعاملون مع الجاسوس بثقة، لأنهم يعتقدون أن صاحبهم يعرفه معرفةً جيّدةً، وهكذا تتسع دائرة معارف هذا الجاسوس، الذي لا يبخل علىٰ من يتعرّف عليهم بالحديث عن فضائح القذافي وجرائمه، وفي المقابل يسمع الكثير عن أحوال الإسلاميين الليبيين في الخارج، ومشكلاتهم، وخلافاتهم، وأسمائهم، وقد يجد من يمدّه بمعلومات أكثر وأهم من منطلق حسن الظنّ به. وتتكرّر لقاءات الجاسوس بل الجواسيس بهم، وتعاونهم معه، وقد

يعتمرون في رمضان، ثم يحجّون بنفس العام، والمعلومات التي يحصلون عليها قد تورّط أبرياء من الليبيين في الداخل والخارج.

المثال الثالث:

لم يكتف حزب البعث النصيريّ بما سبق ذكره، كما أنه لم يكتف بالمحسوبين علىٰ العلم والعلماء الذين يتعاونون معه، ولا بالبعثيين والنصيريين الذين فرضهم علىٰ كلية الشريعة بجامعة دمشق. لم يكتف بهذا ولا بذاك، بل أنشأ مؤسسةً إسلاميةً رسميةً تتبع جهاز الأمن سماها (جمعية أرباب الشعائر الدينية)، ومن يدقّق النظر في هذه التسمية يدرك أن الذي اختارها لم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، لأن الإسلام دين شامل لكل ما يحتاجه الفرد والجماعة في أمور دينهم ودنياهم، ولا يجوز قصره علىٰ الشعائر!!

ومن جهة ثانية فأصحاب هذه التسمية لم يقولوا: جمعية أرباب الشعائر الإسلامية مع أنه ليس في جمعيتهم يهود ولا نصارىٰ، ومن جهة ثالثة فإن القائمين علىٰ شؤون هذه الجمعية ليسوا من العلماء، ولكنهم يلبسون الزيّ التقليديّ للعلماء في بلاد الشام، ومن جهة رابعة فإن ارتباط المسؤولين عن هذه الجمعية بالنظام الحاكم -وبأجهزة الأمن بالذات- مما لا يخفىٰ علىٰ العامّة والخاصّة هناك.

وسبق عبد الناصر حزب البعث في إنشاء مؤسسات مثل مؤسسة أرباب الشعائر الدينية، وعندما أسّس الاتحاد الاشتراكي جعلها فرعًا من فروعه، وكانت بعض أنشطتها تنشر في الصحف اليومية، واستمرّ دور مؤسسات الضّرار بعد هلاك عبد الناصر، بل أصبحت الحاجة إليها أشدّ وأقوىٰ.

وقصارىٰ القول: إن أساليب أجهزة الأمن ومخططاتها في الصدّ عن سبيل الله،

ومحاربة الدعاة والجماعات الإسلامية لم تعد سرّاً من الأسرار، أو قضيةً من القضايا التي يتستّر الطغاة في فعلها، ويعتريهم الخجل إذا جاء من يكشفها، ومن أراد مثالاً علىٰ ذلك فليتابع مؤتمرات وزراء الداخلية العرب والبيانات الصادرة عنهم بعد هذه الاجتماعات، سيجد من يرصد هذه الظاهرة أن خوفهم من تنامي المدّ الإسلاميّ، وتعاونهم من أجل وأد الصحوة الإسلامية في مهدها مقدّم عندهم علىٰ مكافحة الإجرام والمخدّرات.

والدول الغربية سبقت طغاة بلادنا في إنشاء المؤسسات الأمنية المعادية للإسلام والمسلمين، ومن يطّلع علىٰ مذكرات كبار السياسيين ورجال الأمن الفرنسيين وما كتبوه عن دول شمال إفريقيا خلال استعمارهم لها، يمرّ معه ذكر قسم من أقسام المخابرات الفرنسية اسمه (القسم الإسلاميّ)، ولهذا القسم فرع في كلّ من: الجزائر، وتونس، ومراكش، وهذا جانب من الصورة التي نريد عرضها.

أما الجانب الآخر من هذه الصورة فقد تحدّث عنه علماء هذه الدول، وفي طليعتهم جمعية العلماء المسلمين في الجزائر، وعندما كنت أقرأ كثيرًا مما كتبوه، كنت أشعر وكأنهم يتحدّثون عما يلاقيه الدعاة والعلماء والجماعات الإسلامية اليوم علىٰ أيدي قادة أجهزة الأمن، مع فوارق:

منها: أن الفرنسيين كانوا يخشون من إثارة الرأي العام الإسلاميّ، ولهذا كانوا لا يهدمون المساجد.

منها: أن الفرنسيين معروفون بأنهم كفار نصارىٰ، أما طواغيت عصرنا فيدّعون بأنهم مسلمون، والناس يرونهم أيام الجمع والأعياد في المساجد وقد رفعوا أكفّهم بالدعاء إلىٰ

الله، ولهذا يغترّ البعض بهم.

ويبقىٰ القسم الإسلاميّ في المخابرات الفرنسية [رغم بشاعة ما ارتكبه من جرائم] ضعيفًا وقليل الخبرة أمام مثيله في المخابرات البريطانية، ومن شاء أدلةً علىٰ ذلك فيكفيه أن يقرأ بعض ما كتبه علماء شبه القارة الهندية، ويكفيه أيضًا أن يعلم أن هذه المخابرات ومن وراءها صنعت طوائف جديدةً بين المسلمين، كالبهائية والقاديانية، وتبنّت كثيرًا من الدعوات والشخصيات المشبوهة كالسير أحمد خان وغيره كثير.

أما المخابرات الأمريكية فقد حاولت منذ بداية الخمسينيات أن تكون بديلاً للمخابرات الغربية كلّها في بلادنا، والذين يتابعون الأحداث يعرفون دور هذا الجهاز في صنع ثورة يوليو المصرية عام ١٩٥٢م، ومن قبل فقد صنعت انقلاب حسني الزعيم في سورية، وغير ذلك كثير جدًّا.

وإذا كانت هذه هي بعض أنشطة مؤسسات أعدائنا، فماذا أعددنا لمواجهة خططهم الخبيثة الماكرة؟ إن مؤسساتنا وأنشطتنا لا تزال تُدار بطريقة بدائية تقليدية، ولم تشهد تقدّمًا فعّالاً لا يتناسب مع الوسائل الجديدة التي يستحدثها العدوّ بشكل دائم، بل لا يزال بعضنا يجهل كثيرًا من مخططات العدوّ، ولا بدَّ من تدارك النقص وإصلاح الخلل حتىٰ لا تُختَرق صفوفنا.

الفصل الخامس: الصفّ الذي لم يُخترق

مع أن الأمثلة التي استشهدتُ بها علىٰ اختراقات المنافقين للصفّ الإسلاميّ كانت في أضيق الحدود الممكنة، فقد بدت مخيفةً ومزعجةً، وقد سألني بعض الذين لم يعايشوا قسمًا من هذه الأحداث، ولم يتابعوا تطورات القسم الآخر الذي عايشوه:

إذن: أين الصفّ الإسلاميّ الذي لم يُختَرق، وما هي مواصفاته؟!

وقبل الحديث عن الصفّ الذي لم يُخترق لا بدَّ من توضيح الحقيقة الآتية:

لم أقل فيما كتبته: إن الصفوف الإسلامية كلّها مُخترقة، وما قصدت ذلك لا تصريحًا ولا تلميحًا، فالخير موجود في جميع العصور، كما أن الشرّ موجود، ولا يجوز تضخيم دور المنافقين المفسدين في الأرض، لأن مثل هذا التضخيم يتحوّل إلىٰ أوهام ومخاوف نفسية تشلّ طاقة الدعاة العاملين إلىٰ الله جل وعلا، وتزيدهم في العمل الجماعي، ويصبح مبدأ الشك عندهم هو الأصل في تقويم الرجال واختيار الأصدقاء.

وهذا الذي تسعىٰ أجهزة الأمن إلىٰ تعميقه، إذ أنها بين كلّ فترة وأخرىٰ تضّطهد جماعةً من الجماعات الإسلامية، وتقدّم قادتها وكبار المسؤولين فيها إلىٰ محكمة من محاكمها التي تفتقد أبسط معاني العدل، وتحاول إيهام الجمهور -عن طريق أجهزة إعلامها المتنوعة- بأنها كانت تعرف أدقَّ أسرار هذه الجماعة، ويفاجأ الأعضاء بأن كلّ أسرارهم أصبحت مكشوفةً، فيعتريهم الإحباط، ويعتزل بعضهم كلّ ما له صلة بالعمل الجماعي.

إن الذي أردته من وراء تقديم هذه الدراسة: ضرورة الاعتراف بأخطائنا، وبيان خطورة

التستّر عليها، احترامًا لمشاعر القادة، وحتىٰ لا تهتز مكانتهم ويتعرّضوا للنقد أو للتجريح، فالقادة وغيرهم ليسوا أفضل من جيل الصحابة الذين أشار القرآن إلىٰ أخطاء بعضهم في غزوة أُحُد وغيرها من الغزوات (١).

ولن يحقّق الدعاة ما يتطلّعون إليه من أهداف نبيلة إذا لم يعترفوا بأخطائهم، ويبيّنوا أسبابها، ويرسموا الضوابط التي تمنع من تكرار هذه الأخطاء.

ولو أنني تجاوزت ذكر هذه الأمثلة التي اخترتها [وهي ليست سرًّا من الأسرار، فلقد تحدّث عنها العدوّ والصديق] لاتُّهِمْتُ بالتستّر علىٰ هذه الأخطاء، ولخالفت المنهج الذي اتبعته، وهو البحث عن علاج مشكلات وقضايا العصر علىٰ ضوء الهدىٰ النبوي.

أما الصفّ الذي لم يخترقه المنافقون وغيرهم من أعداء الإسلام، فهو صفّ الصحابة رضوان الله عليهم الذين تعهّدهم رسول الله ﷺ بالتربية والتعليم، وعاشوا معه أيام الشدّة والابتلاء، وصقلتهم المحن والمصائب المتتالية، وتحمّلوا شظف العيش، وهجران الأهل والعشيرة.

ولابد لنا ونحن نعمل من أجل أن تكون صفوفنا متراصّةً، لا يخترقها عدوّ من أعداء الإسلام، من التأسي بأصحاب رسول الله ﷺ، وهذا يتطلّب منا تقديم لمحات عن فضل الصُّحبة، ومن هو الصحابي، وبيان طبقاتهم، ولماذا فضَّلهم الله عمن جاء بعدهم من المسلمين.

---

(١) فصّلت القول في هذه المسألة في كتابي (قل هو من عند أنفسكم).

تعريف الصحابي:

الصحابي من لقي النبي عليه الصلاة والسلام مؤمنًا ومات علىٰ الإسلام، وقال ابن حجر العسقلاني: (أصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي: من لقي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به ومات علىٰ الإسلام، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت، ومن روىٰ عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو يَغْزُ، ومن رآه ولم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمىٰ) [١].

وقال ابن حزم في تعريف الصحابي: (أما الصحابة رضي الله عنهم، فهو كلّ من جالس النبيَّ ﷺ ولو ساعةً، وسمع منه ولو كلمةً فما فوقها، أو شاهد معه عليه السلام أمرًا يعيه، ولم يكن من المنافقين الذين اتصل نفاقهم واشتهر حتىٰ ماتوا علىٰ ذلك، ولا مثل من نفاه عليه السلام باستحقاقه (كهيت المخنّث) ومن جرىٰ مجراه، فمن كان كما وصفنا أولاً فهو صاحب، وكلهم عدل إمام فاضل رضيّ، فُرض علينا علينا توقيرهم وتعظيمهم، وأن نستغفر لهم، وتمرة يتصدّق بها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بما يملك، وجلسة الواحد منهم مع النبي ﷺ أفضل من عبادة أحدنا دهره كله) [٢].

نخرج من هذه التعريفات التي هي موضع اتفاق أئمة أهل السُّنة بالنتائج الآتية:

- الصحابي من لقي النبيَّ ﷺ مؤمنًا به.
- أن يكون قد مات علىٰ الإسلام.
- أن يكون عدلاً.

وهذه النتائج لا تنطبق علىٰ المرتدّين، لأنهم كفروا بعد إسلامهم، وماتوا كفارًا

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، المقدّمة، المجلد الأول، ص:٤-٥.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم: ٥/ ٨٦٥.

مرتدّين، وأجمع الصحابة رضوان الله عليهم علىٰ قتالهم، قتال ردّة لا قتال بغي، وإجماع الصحابة حجة عند أهل السُّنة.

ولا تنطبق هذه النتائج أيضًا علىٰ المنافقين الذين اتصل نفاقهم واشتهر، ولو كانوا قد رأوا رسول الله ﷺ، وأعلنوا إسلامهم، لأن الآيات القرآنية فضحتهم، وكشفت ما تُخفيه صدورهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة التوبة:٨٤].

وبعد نزول هذه الآية لم يصلّ النبي ﷺ علىٰ منافق، ولا قام علىٰ قبره حتىٰ التحق بالرفيق الأعلىٰ.

وأمام هذه الحقائق تتهاوىٰ مزاعم وافتراءات المستشرقين والشعوبيين الباطنيين الذين يضعون تعريفات للصحابي تمليها عليهم أهواؤهم وأحقادهم الدفينة، أو يجتزئون أقوالاً لأئمة الحديث يفصّلونها عما قبلها أو بعدها. ومن ذلك قول بعضهم: (الصحابي كلّ من صاحب النبي ﷺ ورآه وسمعه)، وسياق هذا التعريف يؤكّد بأنه لابد أن يكون الذي رآه وسمعه من المسلمين، ومن الذين ماتوا علىٰ الإسلام. لكن هؤلاء لا يذكرون بقية التعريف، وبما أن الصحابي كلّ من رأىٰ الرسول ﷺ، فالمنافقون والمرتدّون من الصحابة، وهذا مخالف لتعريف الصحابي عند علمائنا الذين يعتقدون بأن الصحابة رضوان الله عليهم أفضل الناس بعد الأنبياء، ويستدلّون علىٰ ذلك بتوثيق الله لهم في القرآن الكريم، وثناء الرسول ﷺ عليهم، والمنافقون والمرتدّون ليسوا من الصحابة، ولا يشملهم مثل هذا الفضل، بل وليسوا مسلمين.

أما أهداف المستشرقين والرافضة، ومن نحا نحوهم، في الطعن بالصحابة رضوان الله

عليهم، فقد كشفها أبو زرعة بقوله: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدّىٰ إلينا هذا القرآن والسُّننَ أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يُجرّحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسُّنة، والجرح بهم أولىٰ، وهم زنادقة) (١).

عدالة الصحابة:

يعتقد أهل السُّنة أن الصحابة –رضوان الله عليهم– كلّهم عدول. يقول ابن الصلاح: (للصحابة بأسرهم خصيصة، وهي أن لا يُسأل عن عدالة أحدٍ منهم، بل ذلك أمرٌ مفروغ منه، لكونهم علىٰ الإطلاق مُعدّلين بنصوص الكتاب والسُّنة وإجماع من يُعتدّ به في الإجماع من الأمة. قال تبارك وتعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران:١١٠]، قيل : اتفق المفسّرون علىٰ أنه وارد في أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ:﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [سورة البقرة:١٤٣]، وهذا خطاب مع الموجودين حينئذ. وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [سورة الفتح:٢٩].

وفي نصوص السُّنة الشاهدة بذلك كثرة، منها حديث أبي سعيد المتفق علىٰ صحته أن رسول لله ﷺ قال: ((**لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك أحدهم ولا نصيفه**)) (٢)، ثم إن الأمة مُجمعة علىٰ تعديل جميع الصحابة،

(١) انظر: كتاب: الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص: ٩٧، دار الكتب الحديثة –القاهرة.

(٢) سيأتي شرح هذا الحديث مع التعليق عليه.

ومن لابس الفتن منهم[١] فكذلك بإجماع العلماء الذين يُعتدّ بهم في الإجماع، إحسانًا للظنّ بهم، ونظرًا إلىٰ ما تمهّد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه وتعالىٰ أتاح الإجماع علىٰ ذلك، لكونهم نَقَلَة الشريعة، والله أعلم[٢]. انتهىٰ كلام ابن الصلاح.

وعند الحديث عن عدالة الصحابة -رضوان الله عليهم- يعود الرافضة إلىٰ شَغَبهم المعهود عنهم، ويتّهمون الصحابة بالكذب والنّفاق والكفر والردّة، يقول الشعبي رحمه الله: (سُئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسىٰ. وسُئلت الرافضة: من شرّ أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، أُمِرُوا بالاستغفار لهم، فسبّوهم) [٣].

ومن جهة أخرىٰ يخلط أهل الرفض -عن خبث- بين العدالة والعصمة، وهم الذين يعتقدون العصمة لأئمتهم من آل البيت، أما أهل السُّنة فلا يعتقدون عصمة غير أنبياء الله عليهم السلام.

وعدالة الصحابة عند المحدّثين من أئمة أهل السُّنة تعني: تجنُّب تعمّد الكذب في الرواية والانحراف فيها بارتكاب ما يوجب عدم قبولها. قال شاه ولي الله الدهلوي: (وبالتّتبُّع وجدنا أن جميع الصحابة يعتقدون أن الكذب علىٰ رسول الله أشدّ الذنوب، ويحترزون عنه غاية الاحتراز) [٤].

واشترط علماء الحديث فيمن تُقبل روايته من المحدّثين -أي في عصر تدوين

---

(١) أي: من شارك في القتال بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما.

(٢) انظر كتاب علوم الحديث، لابن الصلاح، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ص: ٢٦٤ و ٢٦٥.

(٣) منهاج السنة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الجزء الأول، ص: ٦.

(٤) انظر هامش تدريب الراوي، للشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، ص: ٢١٥ و ٢١٦.

الحديث –أن يكون عدلاً ضابطًا لما يرويه، وتفصيله: أن يكون مسلمًا، بالغًا، عاقلاً، سالمًا من أسباب الفسق وخوارم المروءة، وتثبت العدالة بالاستفاضة أو بمُعدّلين للراوي، والفرق بين هؤلاء الرواة والصحابة أن الصحابة ثابتة عدالتهم ولا يحتاجون إلىٰ معدّلين لهم.

محاولات الاختراق:

بذل أعداء الإسلام محاولات كثيفةً وحثيثةً من أجل وأد الدعوة الإسلامية، وهي لا تزال غضّةً فتيّةً لم يشتدّ عودها، ولم يكثر أنصارها وتتعمّق تربيتهم.

فالمشركون في مكة استخدموا وسائل الاضّطهاد والتنكيل مع كلّ من آمن برسالة المصطفىٰ ﷺ، وعندما فشلت هذه الطريقة، راحوا يفاوضون رسول الله ﷺ ليتنازل عن بعض ما يدعوا إليه، وهم يتنازلون عن بعض معتقداتهم، ويلتقون مع رسول الله ﷺ في منتصف الطريق، وننقل من القرآن الكريم بعض هذه المحاولات:

- قال تعالىٰ مخاطبًا نبيه الكريم ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [سورة القلم:٨-٩]. قال ابن جرير: ودّوا لو تركن إلىٰ آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق، فيمالئونك.
- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [سورة الإسراء:٧٤-٧٥]. أراد المشركون أن يفتنوه عن دينه، فثبّته الله علىٰ الدين القويم والمنهج المستقيم.
- وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الكهف:٢٨]. وسبب نزول هذه الآية أن المشركين طلبوا من رسول الله ﷺ طرْد نفر من الصحابة ليتحدّثوا معه، فأمره الله تعالىٰ أن لا يستجيب لهم (١).

واليهود في المدينة رغم إبرامهم معاهدة مع رسول الله ﷺ تُلزمهم نصرة المسلمين ضدّ كلّ عدوّ يداهم يثرب، فقد راحوا في الخفاء يعملون ويبرمون مخطّطات تخالف ما اتفقوا عليه مع رسول الله ﷺ، وهذه هي أخلاق اليهود في القديم والحديث، وهذا هو ديدنهم، وإذا كان من المتعذّر علينا عرض المؤامرات التي دبّرها اليهود ضدّ المسلمين في المدينة، لأن المجال هنا لا يتسع، فلا بأس من اختيار المثال الآتي:

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة آل عمران:٧٢]. اتفق اليهود علىٰ أن يُظهروا الإيمان أول النهار ويصلّوا مع المسلمين، فإذا جاء آخر النهار ارتدّوا إلىٰ دينهم، فيظن الضعفاء أنه لا غرض لهم إلا الحق، وأنه ما ردّهم عن الدين بعد اتباعهم له –وهم أولو علم وأهل كتاب– إلا ظهور بطلانه لهم، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن الإسلام كما رجعتم.. وبعد نزول هذه الآية أصبح أمرهم معروفًا بعد أن كانت هذه الحيلة سرًّا من أسرارهم) (٢).

---

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، وابن جرير الطبري في تفسيره.

(٢) تفسير القاسمي: ٤/ ٨٦٦، دار إحياء الكتب العربية.

المنافقون في المدينة كانوا أخطرَ المعسكرات التي حاولت اختراق الصفّ الإسلاميّ، لأنهم أعلنوا الإسلام، وكانوا يصلّون مع المسلمين في المساجد، ويخرجون معهم إلىٰ الجهاد، وهم الذي بنوا مسجد الضِّرار ليكون ملتقىً لكلّ القوىٰ التي تتآمر علىٰ المسلمين في المدينة، وكان رسول الله ﷺ قد استجاب لطلبهم وأراد أن يصلي به لولا نزول الآيات القرآنية التي فضحت بناة هذا المسجد، وكشفت ما تُخفيه صدورهم [1].

وهذه القوىٰ الكافرة [المشركون في مكة وما حول المدينة، والمنافقون، واليهود] كانوا يعملون صفًّا واحدًا، وقد تجلّىٰ تعاونهم علىٰ الإثم والعدوان بشكل واضح في غزوة الأحزاب، لأنهم كانوا يظنّون أنهم في هذه الغزوة سوف يجتثون الإسلام من جذوره، ولكن الله جل وعلا كان لهم بالمرصاد، ففشلوا وعادوا خائبين، وحفظ الله صفّ الرسول ﷺ وأصحابه من أيّ اختراق. فما هي الأسباب التي جعلت صفّ الصحابة -رضوان اله عليهم- محصنًا ضدّ أي اختراق؟!

طبقات الصحابة:

اهتم علماؤنا بدراسة سير الصحابة -رضي الله عنهم-، ومعرفة أحوالهم، وبيان فضلهم وطبقاتهم، فبالإضافة إلىٰ كتب الحديث والسيرة النبوية، هناك كتب مهمّة أُفردت لهذا العلم، ومن أهمها وأوسعها انتشارًا:

١- كتاب (الطبقات الكبرىٰ)، لمحمد بن سعد [ت: ٢٤٠هـ].

٢- كتاب (الاستيعاب في أسماء الأصحاب) لأبي يوسف عمر بن عبد البر حافظ

(١) انظر كتابي: (قل هو من عند أنفسكم).

المغرب [ت: ٤٦٣هـ].

٣-كتاب (أُسد الغابة في معرفة الصحابة) لعز الدين بن الأثير [ت: ٦٣٠هـ].

٤-كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة)، للحافظ ابن حجر العسقلاني [ت: ٨٥٢هـ]، وقد جمع فيه ما في الاستيعاب وأُسد الغابة واستدرك عليهما كثيرًا.

وبعض هؤلاء العلماء قسّموا -في كتبهم- الصحابة إلىٰ طبقات، واختلفوا في عددها باعتبار السبق إلىٰ الإسلام، أو الهجرة، أو شهود المشاهد الفاضلة، فجعلهم ابن سعد خمس طبقات، وجعلهم الحاكم اثنتي عشرة طبقةً، وهي:

- **الأولىٰ**: قوم أسلموا بمكة كالخلفاء الأربعة.
- **الثانية**: أصحاب دار الندوة.
- **الثالثة**: مهاجرة الحبشة.
- **الرابعة**: أصحاب العقبة الأولىٰ.
- **الخامسة**: أصحاب العقبة الثانية، وأكثرهم من الأنصار.
- **السادسة**: أول المهاجرين الذين وصلوا إليه بقُباء قبل أن يدخلوا المدينة.
- **السابعة**: أهل بدر.
- **الثامنة**: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.
- **التاسعة**: أهل بيعة الرضوان.
- **العاشرة**: من هاجر بين الحديبية وفتح مكة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.
- **الحادية عشرة**: مُسلِمة الفتح.

- **الثانية عشرة:** صبيان وأطفال يوم الفتح أو في حجة الوداع وغيرها [١].

(وأفضلهم -أي الصحابة- علىٰ الإطلاق أبو بكر، ثم عمر -رضي الله عنهما- بإجماع أهل السُّنة، ثم عثمان ثم عليّ، علىٰ هذا قول جمهور أهل السُّنة، وحكىٰ الخطّابي عن أهل السُّنة من الكوفة تقديم عليَّ علىٰ عثمان، وبه قال أبو بكر بن خزيمة).

وقال أبو منصور البغدادي [عبد القادر التميمي]: أصحابنا مجمعون علىٰ أن أفضلهم: الخلفاء الأربعة، ثم الستة الباقون [٢]، من العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أُحُد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية [٣].

وفضّل رسول الله ﷺ جماعةً من أصحابه بفضائل خصَّ كلّ واحد منهم بفضيلة، وسَمَّهُ بها، وذكّره فيها:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبي بن كعب، ولكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**)) [٤].

وفي رواية أخرىٰ زيادة: ((**وأقضاها عليّ**)).

---

(١) انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النووي للحافظ جلال الدين السيوطي ٢/ ٢٢١، دار إحياء السُّنة النبوية.

(٢) وهم: سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح.

(٣) صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج: ٣: ٢٢٧.

(٤) صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج: ٣/ ٢٢٧.

وفي هذا الحديث عبر كثيرة، وفوائد جليلة:

منها: أهمية الاختصاص في حياة الأمم والشعوب، ومن مختلف هذه الاختصاصات تتكوّن أعلىٰ مؤسسة علمية، تختصّ بوضع الحلول والدراسات والفتاوىٰ التي يعجز عنها الفرد، مهما كان تحصيله العلمي، ويختار أعضاء هذه المؤسسة الأفذاذ من كبار العلماء الذين يجمعون بين العلم الذي يمكّنهم من معرفة المتفوّقين، والتقوىٰ التي تمنعهم من اختيار الناس الذين يوالونهم ولو كانوا قليلي العلم والأمانة.

والمسلمون اليوم محتاجون إلىٰ قيام هذه المؤسسة أكثر من أيّ وقت مضىٰ، لأن أمور الحياة تشعّبت وتنوّعت، ويتعذر علىٰ أي عالم أن يحيط بها ويضع الحلول لها، ومن الأمثلة علىٰ ذلك تشعّب المؤسسات الاقتصادية في هذا العصر وتنوّعها، ولن يستطيع أي عالم الإفتاء في قضايا التأمين إلا إذا درس نظام شركات التأمين -علىٰ مختلف أنواعها وأشكالها-، كما أن هذا العالم لا يستطيع الإفتاء في تعامل الحكومات مع صندوق النقد الدولي مثلاً إلا إذا اطّلع علىٰ نظام هذا الصندوق، وطريقة تعامله مع الحكومات، وقلْ مثل ذلك في بقية الأمور التي استجدّت، بينما يستطيع المختص في الاقتصاد إذا كان عضوًا في المؤسسة العلمية الشرعيّة أن يقدّم لزملائه الأعضاء المعلومات والحيثيات الشاملة الوافية في المسألة الاقتصادية المطلوب منهم الإفتاء بها.

ولن تؤدي هذه المؤسسات دورها المطلوب إلا إذا كانت مستقّلةً متجرّدةً لا يستطيع حاكم ظالم أن يعبث بها، ويستخدمها من أجل تحقيق القضايا التي تخدم طغيانه وفساده.

ومنها: أهمية اكتشاف المربّين مواهب تلامذتهم في وقت مبكر، وتنمية هذه المواهب وصقلها بالتعليم والتشجيع علىٰ البحث.

ولقد بُلينا بمربّين جُبلوا علىٰ التشدّد مع طلبتهم، ولو كان بين هؤلاء الطلبة من يتّصفون بصفات مثل صفات بعض الصحابة الذين ورد ذكرهم في حديث أنس، لسمّىٰ المربي الرحمة ضعفًا وتردّدًا، وسمىٰ القوة غلظةً وتنطّعًا، ثم لا يزال يردّد علىٰ أسماع الطلبة ما يسميه سلبيات حتىٰ يقتل المواهب في نفوسهم، ويبقىٰ هو أعلم أهل عصره!!

ومنها: رغم أن أبا بكر كان أفضل الصحابة علىٰ الإطلاق، فلم يقل رسول الله ﷺ: إنه أعلم الصحابة في كلّ شيء، لا بل جاء في نصّ الحديث أن من بين الصحابة من تفوّق عليه بصفة من الصفات، أو نوع من أنواع العلم.

طبقات الصحابة في القرآن والسنة

القرآن الكريم:

عندما قسّم علماؤنا الصحابة إلىٰ طبقات اعتمدوا علىٰ أدلة شرعية من القرآن الكريم والسُّنة النبوية، فأما الأدلة التي وردت في القرآن الكريم فكثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحديد:١٠].

أجل لا يستوي من قاتل رسول الله ﷺ ثم أسلم فيما بعد، مع من قاتل معه وقت الشدّة والضيق.

جاء في [الإكليل]: (وفي الآية دليل علىٰ أن للصحابة مراتب، وأن الفضائل للسابق، وعلىٰ تنزيل الناس منزلهم، وعلىٰ أن أفضلية العمل علىٰ قدر رجوع منفعته إلىٰ الإسلام والمسلمين، لأن الأجر علىٰ قدر النصب) ا.هـ[1].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ أي لعظم موقع نصرة الرسول، صلوات الله عليه، بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال، وفي المسلمين قلة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد. فكانت الحاجة إلىٰ النصرة والمعاونة أشدَّ، بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويًّا، والكفر ضعيفًا.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي كلّ واحد من الفريقين وعده الله المثوبة الحسنىٰ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء. قال ابن كثير: وإنما نبَّه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر،

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص٢٥٥).

بمدح الأول دون الآخر، فيتوهّم متوهّم ذمَّه، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه [١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة التوبة:١٠٠].

السابقون الأولون: قيل هم الذين صلّوا إلىٰ القبلتين، ومع ذلك فهم طبقات:

الطبقة الأولىٰ: السابقون الأولون من المهاجرين، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية، لأن المشركين كانوا إلىٰ ذلك الوقت يضّطهدون المؤمنين في بلادهم، ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يمكّنون أحدًا من الهجرة ما وجدوا إلىٰ صدّه سبيلاً.

الطبقة الثانية: السابقون الأولون من الأنصار وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في منىٰ في المرة الأولىٰ وكانوا سبعةً، ويليهم الذين بايعوا النبي ﷺ في المرّة الثانية وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين، ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم مصعب بن عمير، وكذا عند قدوم النبي ﷺ وقيل أن تكون للمسلمين قوة غالبة تُتَّقَىٰ وتُرْتَجَىٰ.

الطبقة الثالثة: الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة اتباعًا بإحسان، فتضمّن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان، لأنهم صاروا أئمةً متبوعين، وخرج به من اتّبعوهم في ظاهر الإسلام مسيئيين غير محسنين

(١) محاسن التأويل، للقاسمي، ص٥٦٧٩.

في هذا الاتباع وهم المنافقون.

ولفظ الاتباع فيها نصّ في الصحابة المتأخّرين الذين اتّبعوا الأولين من المهاجرين والأنصار في صفتيهم: الهجرة والنُّصرة، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل في عمومه التابعون الذين تلقّوا العلم من الصحابة، ولم ينالوا شرف الصُّحبة والهجرة والنُّصرة، وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبي ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ (١).

وقوله تعالىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر:٨-٩].

وعن فضيلة من فضائل أبي بكر رضي الله عنه يقول تعالىٰ:﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة التوبة:٤٠].

وعن أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوه تحت الشجرة في الحديبية يقول تعالىٰ: ﴿* لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ

(١) تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا، (١١/ ١٧١٣) بتصرف.

﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الفتح:١٨].

وهذه هي بيعة الرضوان، وكانت بسبب تأخر عثمان بن عفان عندما أرسله رسول الله ﷺ إلىٰ مكة.

السُّنة النبوية:

أما الأدلة من السُّنة علىٰ طبقات الصحابة وفضلهم فكثيرة أيضًا، وللسابقين الأولين من المهاجرين الحظ الأوفر من هذه الأحاديث، ونكاد لا نجد صحابيًّا من السابقين الأولين إلا وهناك حديث صحيح عن فضله، ونكتفي هنا بالحديث الآتي، لأنه يشمل طبقة عبد الرحمن بن عوف:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: ((**لا تسبُّوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**)) (١).

وفي رواية عن أنس بن مالك أن خالدًا قال لعبد الرحمن بن عوف: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها. فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي ﷺ فقال: ((**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُد، أو مثل الجبال، ذهبًا ما بلغتم أعمالهم**)) (٢).

خالد بن الوليد، هو سيف الله تعالىٰ، وفارس الإسلام، وليث المشاهد، وقائد

(١) رواه الشيخان، وانفرد مسلم بذكر سبّ خالد لعبد الرحمن بن عوف دون البخاري، انظر صحيح مسلم، باب تحريم سبّ الصحابة.

(٢) الحديث صحيح، انظر تخريجه في كتابي: قضايا العصر علىٰ ضوء عقيدة أهل السُّنة والجماعة: ١/ ١٠٢.

المجاهدين، وابن أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

هاجر مسلمًا في صفر سنة ثمان، ثم سار غازيًا، فشهد غزوة مؤتة، وتأمّر علىٰ الجيش بعد استشهاد أمراء رسول الله ﷺ الثلاثة، وشهد الفتح وحُنينًا، وتأمّر في أيام النبي ﷺ، واحتبس أدراعه، ولأُمته في سبيل الله.

حارب أهل الردّة، ومسيلمة، وغزا العراق، وشهد حروب الشام، حيث أَمَّرَه الصدّيق علىٰ سائر أمراء الأجناد، وحاصر دمشق فافتتحها هو وأبو عبيدة.

وعن حيان [١] بن أبي جبلة، عن عمرو بن العاص، قال: ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحدًا في حربه منذ أسلمنا [٢].

وإذن: فخالد بن الوليد الذي اجتمعت فيه هذه الفضائل كلّها من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن صحبته لا تُقارن بصحبة عبد الرحمن بن عوف: أحد العشرة المبشَّرين بالجنّة، وأحد الستة أهل الشورىٰ، وأحد الثمانية الذين بادروا إلىٰ الإسلام[٣]، وأحد الذين شاركوا في غزوة بدر الكبرىٰ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (عبد الرحمن بن عوف ونظراؤه هم من السابقين الأولين الذين صحبوه ﷺ في وقت كان خالد وأمثاله يعادونه فيه، وأنفقوا أموالهم قبل الفتح وقاتلوا، وهم أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا، وكلاً وعد الله

---

(١) ذكره الهيثمي في (المجمع) ٩/ ٣٥٠ وقال: رواه الطبراني في الأوسط، والكبير، ورجاله ثقات [عن هامش سير أعلام النبلاء، للشيخ عبد القادر الأرناؤوط].

(٢) سير أعلام النبلاء، ج: ٣/ ٦٦.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج: ١/ ٦٨.

الحسنىٰ، فقد انفردوا من الصُّحبة بما لم يشركهم فيه خالد ونظراؤه ممن أسلم بعد الفتح الذي هو صلح الحديبية وقاتل، فنهىٰ أن يُسب أولئك الذين صحبوه قبله، ومن لم يصحبه قط نسبته إلىٰ من صحبه كنسبة خالد إلىٰ السابقين وأبعد) [١].

وقال شارح الطحاوية: (والمقصود أنه نهىٰ من له صُحبة آخرًا أن يسبّ من له صُحبة أولاً، لامتيازهم عنهم من الصُّحبة بما لا يمكن أن يشركهم فيه حتىٰ لو أنفق لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه.

فإذا كان هذا الحال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين) [٢].

أما السابقون الأولون من الأنصار، فمن الأحاديث التي وردت في فضائلهم ما رواه ابن بُكير في حديثه، قال: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا علىٰ الإسلام وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها) [٣].

وعندما أرسل حاطب بن أبي بلتعة رسالةً إلىٰ المشركين في مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، وقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال له ﷺ: ((**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطّلع علىٰ أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)) [٤].

---

(١) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول، شيخ الإسلام ابن تيمية، ص: ٥٨١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، للعلامة ابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، ص: ٥٢٩-٥٣٠.

(٣) صحيح البخاري، باب وفود الأنصار إلىٰ النبي ﷺ وبيعة العقبة.

(٤) صحيح مسلم، باب فضائل حاطب بن أبي بلتعة.

وعن فضائل أهل الشجرة (رضي الله عنهم)، قال رسول الله ﷺ: ((**لا يدخل النار إن شاء الله تعالىٰ من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**)) (١).

وعن فضائل الأنصار: قال البراء بن عازب ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق**)) (٢).

ويوم حُنين أعطىٰ رسول الله ﷺ قريشًا، فتكلّم بعض الأنصار فبلغ ذلك النبي ﷺ، فدعا الأنصار، فقال: ((**ما الذي بلغني عنكم وكانوا لا يكذبون، فقالوا: هو الذي بلغك، فقال لهم ﷺ: أولا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلىٰ بيوتهم، وترجعون برسول الله ﷺ إلىٰ بيوتكم، لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم، ولولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار**)) (٣).

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل الشجرة.

(٢) صحيح البخاري، باب حب الأنصار.

(٣) صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ: (لولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار).

الفصل السادس: فوائـــــد

عرضت في هذا البحث: (كيف نحصّن الصف الإسلاميّ من المنافقين) صورًا من اختراقات المنافقين للجماعات والهيئات الإسلامية في هذا العصر، وبيّنت كيف تمكّن المخترِقون من ضرب هذه الجماعات في أخطر حصونها. ثم تحدّثت عن أصحاب رسول الله ﷺ كمثل واضح وجليّ علىٰ مواصفات الصفّ الذي لم يُختَرق، وأهمية الاقتداء به.. ومن خلال ما استعرضناه يمكننا الخروج بالفوائد التالية:

الفائدة الأولىٰ: طبقات الصحابة لا تُختَرق:

رجال كلّ طبقة من طبقات الصحابة معروفة أسماؤهم، واضحة حياتهم، ويستحيل عل منافق اختراق هذه الطبقات، لأنها مُحَصَّنة ضدّ الشقاق والنّفاق والزندقة، وإذا كان الحديث عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار كمثال علىٰ ذلك، وجدنا شواهد كثيرةً تؤكد صحة ما قلناه:

منها: أن مكة والمدينة كانتا قريتين، والناس فيهما يعرفون بعضهم بعضًا معرفةً دقيقةً، فهم يعرفون السابقين الأولين الذين أسلموا، وارتبط إسلامهم بخلافات ومصادمات بينهم وبين أهلهم وذويهم، وبينهم وبين رؤوس الشرك والكفر الذين يتولون تصريف الأمور في مكة والمدينة.

ومنها: أن الصحابة عدول، فإذا قال صحابي: أسلم معي في السنة الأولىٰ أو الثانية فلان وفلان، أو قال كان عددنا في دار الأرقم بن أبي الأرقم كذا، وذكر أسماءهم، فهذا يعني أن قول الصحابي -إذا ثبتت الرواية عنه- صحيح، فكيف إذا ثبتت الرواية عن عدد

من الصحابة؟!

ومنها: أن جمعًا كبيرًا من الصحابة نقلوا إلىٰ جمع كبير من التابعين خبر هذه الطبقات، وأصبح هذا النقل متواترًا، وضُبطت هذه الروايات المنقولة في كتب الحديث، والسير، والتاريخ، وفي كتب الرجال وفق منهج شهد بصحته العدوّ والصديق، ولم تعرف الأمم في القديم والحديث مثيلاً لهذا المنهج الذي انفردت به الأمة الإسلامية.

تقول هذه الروايات: إن الذين بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة الأولىٰ [١٢ رجلاً]، وفي العقبة الثانية سبعون رجلاً وامرأتان، هما: نسيبة بنت كعب [أم عمارة]، وأسماء بنت عمرو بن عدي.. وكان عدد النقباء: إثنا عشر رجلاً، تسعة من الخزرج،وثلاثة من الأوس.

وعدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

وعدد الذين شهدوا بيعة الرضوان ألف وخمسمائة رجل.

وقل مثل ذلك في عدد الذين صلّوا إلىٰ القبلتين، وعدد الذين شهدوا أُحُدًا والخندق وتبوك، وعدد الذين أسلموا قبل فتح مكة مع ذكر أسماء كلّ طبقة من هذه الطبقات.

فعندما تواجهنا روايتان مختلفتان عن عدد رجال طبقة من الطبقات ماذا نفعل، وأي الروايتين نقدّم علىٰ الأخرىٰ؟! وكمثال علىٰ ذلك أهل بدر، فإذا كانت هناك رواية تقول: إن عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ورواية أخرىٰ تقول: إن عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً.. فهل هناك احتمال تسلّل اسم منافق إلىٰ أسماء رجال هذه الطبقة من خلال التعارض الظاهر في اختلاف الروايتين؟ وجوابنا علىٰ هذا السؤال نحدّده في النقاط الآتية:

١-نطبّق منهج أهل الحديث في الحكم علىٰ الروايتين المتعارضتين في الظاهر، ونقدّم الرواية الأقوىٰ دلالةً.

٢-ليس في الطبقات الآتية منافقون: طبقات المهاجرين كلّها، السابقون الأولون من الأنصار كأصحاب العقبة والذين أسلموا قبل الهجرة، أهل بدر، فإذا وردت روايتان عن عدد رجال طبقة من طبقات المهاجرين مثلاً، فالرواية الأكثر عددًا ليس فيها نفاق إذا ثبت أن الأسماء الزائدة من المهاجرين.

٣-كما أن هناك ضوابط لمعرفة الصحابي من غيره، فهناك ضوابط لمعرفة المنافقين، وكان رسول الله ﷺ يخصّ حذيفة بن اليمان بأسمائهم وأخبارهم، وحذيفة يحافظ علىٰ أسرار رسول الله ﷺ، ولا يبوح بها لأحدٍ من الصحابة ولو كان من أكثرهم مكانةً عند رسول الله ﷺ.

يحدّثنا البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ جاءه المخلّفون بعد غزوة تبوك، فقبل اعتذار بضعة وثمانين رجلاً، واستغفر لهم، وَوَكَل سرائرهم إلىٰ الله، أما كعب بن مالك وصاحباه فطلب ﷺ من المسلمين اعتزالهم حتىٰ يقضي الله فيهم. فلماذا قبِل رسول الله ﷺ اعتذار من اعتذر وحلف، وطلب من المسلمين اعتزال ثلاثة فقط؟!

يجيب علىٰ هذا السؤال ابن القيم فيقول: (وفي نهي النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلّف عنه دليل علىٰ صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم علىٰ هذا الذنب، وأما المنافقون، فجرمهم أعظم من أن يُقابَل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النّفاق، ولا فائدة فيه).

وقال أيضًا: (ولم يكن يتخلّف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة، إما مغموض

عليه في النّفاق، أو رجل من أهل الأعذار، أو من خلّفه رسول الله ﷺ واستعمله علىٰ المدينة أو خلّفه لمصلحة) ا هـ[١].

إن رسول الله ﷺ كان يعرف المنافقين في المدينة، ولهذا قبِل اعتذار بضعة وثمانين رجلاً، وأمر المسلمين باعتزال ثلاثة فقط، ولهذا سأل كعب بن مالك رجالاً من بني سلمة شهدوا حضور المخلّفين الذين جاءوا يعتذرون من رسول الله ﷺ: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرًا أسوةً، فمضيتُ حين ذكروهما لي)[٢].

وإذا كان تسلُّل اسم منافق إلىٰ طبقة من طبقات المتأخّرين من الصحابة في منتهىٰ الصعوبة، فما بالك بطبقات السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، بل إلىٰ صفّ أهل الحلّ والعقد في عهد رسول الله ﷺ وعهد الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؟!

إن وصول منافق واحد إلىٰ الصفوف المتقدّمة من المستحيلات.. وكان من الممكن أن يقال: كان أهل المدينة يستعدّون لتتويج شيخ المنافقين عبد الله بن أُبيّ ملكًا عليهم قبل مقدم رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وليس في تعيينه عضوًا من أعضاء الشورىٰ الذين يحيطون برسول الله ﷺ أيّ ضرر، لأنه سيكون واحدًا بين جمع من السابقين الأولين، وسوف يشعر بعد هذا التعيين أنه ما زال عزيزًا بين أهله وقومه.

في حسابات السياسيين عند بعض الإسلاميين لا بدَّ من احتواء أمثال عبد الله بن أبيّ

---

(١) زاد المعاد، الجزء الثالث، ص: ٥٧٤-٥٧٨.

(٢) مقطع من حديث كعب بن مالك في صحيح البخاري.

وإغرائه بمنصب من المناصب، ويصل حدّ هذا الاحتواء إلىٰ مخاطبة رأس من رؤوس النّفاق والزندقة والعلمانية قائلين له: نبايعك ملكًا أو رئيسًا علىٰ أن تتعهّد بتحكيم شرع الله، ولو قبِل هذا الطاغية بيعتهم له، وفاوضهم علىٰ تطبيق بعض أحكام الإسلام، وتأجيل الأحكام الأخرىٰ لأجل غير محّدد لقبِلوا والتمسوا له الأعذار ودافعوا عنه، وأصبح الطاغية عندهم أميرًا للمؤمنين.

لكن المسألة عند رسول الله ﷺ لم تكن مجرّد حسابات سياسية، وقبول منافق في مركز قيادي إذا كان لا يملك التأثير علىٰ القرار المتخذ، لا، إن المسألة أبعد مما يتصوّره البعض في عصر الديمقراطية، فهناك شروط لأهل الحلّ والعقد في النظام الرباني الخالد، وهذه الشروط لا تنطبق علىٰ عبد الله بن أبيّ، ولا بدَّ من تميّز الصفوف، ولا يجوز أن يخترق منافق طبقة السابقين الأولين لأيّ اعتبار من الاعتبارات.

ولنا عبرة أيضًا في قصة أبي سفيان عندما أعلن إسلامه بين يدي رسول الله ﷺ وهو في طريقه إلىٰ فتح مكة -الفتح الأعظم-: قال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. قال ﷺ: ((**نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن**)) [(١)].

استجاب رسول الله ﷺ لطلب عمّه العباس، وخصّ أبا سفيان بمكرمة تميّز بها عن أهل مكة، ولكنّ هذه الميزة كانت توافق حرص رسول الله ﷺ علىٰ فتح مكة من غير إراقة دماء، فعندما يسمع أهل مكة زعيمهم أبا سفيان ينادي بأعلىٰ صوته طالبًا منهم اللجوء

---

(١) زاد المعاد، ٣/ ٤٠٣، وفي رواية لمسلم في صحيحه: (ومن ألقىٰ السلاح فهو آمن)، كتاب الجهاد والسير، فتح مكة.

إلىٰ الأماكن الآمنة يعلمون أن القتال لا يُجدي، وليس أمامهم إلا الاستسلام.

حَسُنَ إسلام أبي سفيان بعد فتح مكة، فشهد حُنينًا، وأعطاه رسول الله ﷺ من الغنائم مائةً من الإبل، وأربعين أوقيةً من الدراهم يتألّفه بذلك، وشهد قتال الطائف، فقلعت عينه حينئذٍ، ثم قلعت الأخرىٰ يوم اليرموك، وكان يومئذٍ يحرّض علىٰ الجهاد [تحت راية ولده يزيد] ويصيح: يا نصر الله اقترب، ويقول أيضًا: الله الله، إنكم أنصار الإسلام ودارة العرب، وهؤلاء أنصار الشرك ودارة الروم، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك.

وقال الحافظ في (الإصابة) ٥/ ١٢٩: (روىٰ يعقوب بن سفيان وابن سعد بإسناد صحيح عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك، إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب، قال: فنظرت، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد).

ومع كلّ هذه المزايا لم يبلغ بعد إسلامه وجهاده مرتبة السابقين الأولين أو أهل الحلّ والعقد من كبار الصحابة، وبقي حيث يستحق في طبقة الذين أسلموا عند فتح مكة، وبقي بلال بن أبي رباح وزيد بن حارثة، وصهيب الرومي، أفضل منه، وهذا هو المقياس الإسلاميّ الصحيح.

نعود إلىٰ الحديث عن واقعنا المعاصر فنقول:

ليس لهذه الطبقات وجود يستحق الذكر في حياة الجماعات الإسلامية، وهذا الذي سهّل علىٰ المنافقين الوصول إلىٰ قيادة هذه الجماعات، وتدبير مؤامرات لا يقدر عليها إلا من يعرف البيت من داخله معرفةً حقيقيةً، وقد رأينا ما فعله عبد الناصر وزملاؤه قادة انقلاب يوليو ١٩٥٣م بالإخوان المسلمين، وما فعله الوافد المصري عام ١٩٥٤م بالإخوان المسلمين في سورية، والدور الخطير الذي نفّذه أبو عبد الله الجسري بالطليعة

الإسلامية في أوائل الثمانينيات، ودور علي العشماوي في تنظيم ١٩٦٥م، والدور الذي رسمته المخابرات الجزائرية، ونفّذه المنشقّون علىٰ مجلس شورىٰ الجبهة الإسلامية للإنقاذ عام ١٩٩١م. وأخيرًا وليس آخرًا دور عميل المباحث الأمريكية عماد سالم فيما سُمّي بأحداث نيويورك، وما لم نذكره عن مؤامرات أعداء الإسلام أكثر.

ويتعجّب المهتمّون بشئون الدعوة والجماعات الإسلامية من وصول أسماء معينة إلىٰ أعلىٰ مراكز القيادة في بعض الجماعات [إن لم يكن في كلّ هذه الجماعات] دون أن يكون لهم أية سابقة في هذه الجماعات، ويأتي الجواب أكثر غرابةً من الظاهرة التي أثارت الاستهجان والتعجب.

منهم من يقول: كان لمؤسس الجماعة صلات قوية مع هذا الاسم، وآثر عدم انضامه إلىٰ الجماعة مع بقاء التزامه سرًّا من الأسرار، ولا ندري مدىٰ صحة هذا القول، لأن القائلين به أصدقاء ومحبون للقائد الجديد، ومن جهة أخرىٰ فمجيئهم به مناورة ذكية للتغلّب علىٰ منافسيهم في الجماعة، ولا نستطيع التأكّد من القائد المؤسّس، لأن الله قد توفّاه، ولكن الذي نعلمه من خلال حديثنا عن الصحابة وطبقاتهم أن هذا الاختيار لا مثيل له.

ومنهم من يقول: المسؤولون وعلية القوم في بلادنا لا يحترمون المجهولين من القادة، وكذلك لا يحترمون الشيوخ [خريجي الكليات والمعاهد الشرعيّة]،ولابد أن نفرض عليهم احترامنا فنختار مسؤولين من طبقات لا تقل عن طبقاتهم، ويعلمون بعد ذلك أن دعوتنا ليست دعوة (دراويش) أو أن القائمين عليها لا يفقهون شيئًا في السياسة وواقع العصر وشؤون الحكم. وسوف يستغرب أشدّ الاستغراب من يقرأ هذه الأسطر،

ويتساءل: أحقًّا هناك من يقول مثل هذا القول؟!

وجوابنا: نعم كانت هذه العقلية سائدةً في الخمسينيات وما قبلها، وسبحان الله كيف تنعكس المفاهيم في حياة عامة المسلمين وكثير من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، وبدلاً من تأسّيهم بالصحابة رضوان الله عليهم يتأسّوْن بالمترفين، وللمترفين طبقات كما أن للصحابة طبقات، وتتناسب طبقات المترفين مع مقدار ما يملكون من أموال وقرىً ومصانع.

وبمناسبة الحديث عن المترفين تحضرني القصة التالية التي لا أستطيع نسيانها:

اختارت جماعة إسلامية كبيرة في بلد عربيّ مهم أحد الإقطاعيين الشباب ليكون نائب مسؤول الجماعة، وقد يقول قائل: وهل يحول الإقطاع الذي ورثه عن أبيه بين الأخ والمهمة التي أُنيطت به إذا كان أهلاً لها؟!

الجواب: لا يمنع الإقطاع هذا الأخ من تولّي مسؤولية في الجماعة إذا كان مؤهّلاً، ولكن المشكلة أنه ليس مؤهّلاً، فهو ليس من رجال الصفّ الأول أو الثاني في الجماعة، كما أنه ليس من أهل العلم أو الخبرة، فعمره لا يتجاوز نهاية العشرينيات، وكل الذي يملكه الإقطاع وعضويته في هذه الجماعة.. فاختلطت الأوراق.

اجتمع مجلس قيادة الجماعة ذات مرة ليناقش مشكلة اشتد فيها الخلاف، ودخل نائب المسؤول في نقاش مع أحد الأعضاء المهذّبين، وارتفعت الأصوات، وخيَّم جوٌّ من التوتر علىٰ المجتمعين، وتذكّر الشاب الإقطاعي أنه لا صوت يعلو علىٰ صوته داخل إقطاعيته، ولا بدَّ أن يُعاقب هذا الذي يرفع صوته، فما كان من (الباشا) إلا أن سحب مسدسًا كان يُخفيه بين ملابسه وصوَّبه نحو أخيه يريد قتله، فهبَّ الأعضاء مذعورين،

وأمسكوا (الباشا)، وتبع بعضهم الضحية الذي هرب إلىٰ غرفة مجاورة، فهدأت الأمور قليلاً، وتفرّق المجتمعون إلىٰ غير رجعة وهم يحمدون الله الذي شملهم بستره، فلو وقعت الجريمة لتعدّت خسائر الجماعة الجاني والمجني عليه، وامتدّت لتشمل القيادة والجماعة كلّها، فالأنشطة والاجتماعات سرّية، وحكومة البلد تتربّص الدوائر بهذه الجماعة وبكل نشاط إسلامي.

وما كانت القيادة التي انفرط عقدها قادرةً علىٰ إبقاء هذا الحدث سرًّا من الأسرار، فالأسلوب المتّبع في مثل هذه الحالة أن يحشد كلّ طرف أكبر عدد ممكن من المؤيّدين ضدّ الطرف الآخر، وهذا يقتضي أن يعلم بهذه الفضيحة مئات من أعضاء هذه الجماعة، وتنكشف أمامهم أسرار كثيرة كانت القيادة تحرص علىٰ سرّيتها، ومن هذه الأسرار أعضاء مجلس قيادة الجماعة.

وبعد مدّة زمنية قصيرة خرج (الباشا) والعضو الآخر [الذي كان هدفًا لمسدسه] من الجماعة ومن كلّ عمل جماعي، خرج (الباشا) لأنه أدرك أن العمل الإسلاميّ الجماعي يختلف عن العقلية التي أَلِفها وتربّىٰ عليها، ولا أدري هل حافظ بعد ذلك علىٰ دينه أم فُتن؟ لكن اسمه لم يعد يُذكر في أجواء الإسلاميين.

أما العضو الآخر فقد أَلِف حياةً بعيدةً عن العنف والشدّة، والدسائس وحبك المؤامرات، وأدرك أن الأجواء كلّها محمومة، وأصبح المسدس ومنظر (الباشا) وهو يحاول إطلاق النار عليه مرتبطًا بأيّ عمل جماعيّ، فنأىٰ بنفسه عن هذه الأجواء[1].

لابد لنا بعد هذا الاستطراد من تقرير النتائج الآتية:

---

(١) لم أتحدّث عن أسباب الخلاف الذي قاد إلىٰ هذه الفضيحة التي ذكرتها، والذي كان يهمّني أسلوب الحوار=

١-لا يُؤتمن علىٰ تحقيق مناهج الجماعة وأهدافها إلا رجال الصفّ الأول فيها أو من يليهم، فإذا وصلت هذه الجماعة إلىٰ مرحلة لا تجد فيها الرجل المناسب من المؤسّسين أو ممن يليهم في القدم والفضل، فالأولىٰ والأفضل أن تلجأ إلىٰ حلّ نفسها، وتخطّط مع غيرها من العلماء والدعاة من أجل تأسيس جماعة جديدة، وعندئذٍ بوسعهم أن يختاروا لها أي داعية إذا توافرت فيه الشروط الشرعيّة، أما اختيار رجل من خارج الجماعة لأي سبب من الأسباب فسوف يقود إلىٰ إحدىٰ النتائج الآتية:

٢-أن يُختار بعد وقوع خلاف بين أهل الشورىٰ، واتفاق الجميع علىٰ أن يكون المسؤول من خارج الجماعة، وسوف يُسَيّر الجماعة طرفٌ من الأطراف المتصارعة إذا كان المسؤول ضعيفًا، وكانت علاقاتهم به قويةً، وبينهم وبينه أفكار متشابهة في طريقة العمل الإسلاميّ، وسوف يشعر الطرف الآخر بالغُبن، فينفجر الخلاف مرّةً أخرىٰ، ويصبح المسؤول الوافد طرفًا من الأطراف المتصارعة.

٣-أن يكون الرجل الذي وقع عليه الاختيار قويًّا، والجماعة تمرّ بحالة ضعف [ولولا هذا الضعف لم تقدم علىٰ اختيار مسؤول من خارج الجماعة]، فسوف يغيّر ويبدّل، ويجد من يساعده ويشدّ أزره حتىٰ تتحوّل هذه الجماعة إلىٰ جماعة تختلف عن الجماعة الأولىٰ في غايتها وأهدافها، فإذا كان التغيير حسنًا فسوف تستفيد منه الجماعة، وإن كان غير ذلك -وهذا هو الغالب- فسوف تجد الجماعة نفسها أمام اختراق خطير يبدّد جهدها ويهدّد استمرارها.

=بين أخوين في أعلىٰ مستويات قيادة الجماعة، وذكرت ما أعرفه عن حسن أخلاق العضو المجني عليه، ولا أزكّي علىٰ الله أحدًا، ولا شأن لي وللقارئ بأسباب الخلاف، وإلىٰ جانب من منهما كان الحق.

٤-إذا كان الرجل الذي وقع عليه الاختيار عالمًا مجدّدًا، فلن يتمكّن من تحقيق ما يصبو إليه، لأن مراكز القوىٰ التي جاءت به ستواجهه بمخالفته لأنظمة الجماعة ولوائحها، وقد عاهدهم علىٰ احترام هذه الأنظمة واللوائح وعدم مخالفتها، وسيجد نفسه أخيرًا يزرع في غير أرضه.

فإذا أراد القائمون علىٰ شؤون الجماعات الإسلامية تحصين صفوفها أمام كلّ اختراق، فلا بدَّ أن يتحرّروا من المفاهيم المنحرفة في مجتمعاتهم، ويقوّموا أخطاءهم، ويقبلوا بنتائج هذا التقويم ولو كانت قاسيةً علىٰ نفوسهم، وقبل هذا وذاك لابد أن يتأسوْا برسول الله ﷺ وأصحابه.

الفائدة الثانية: سابقون في الفضل كلّه:

السابقون الأولون من أصحاب رسول الله ﷺ سبقوا إخوانهم الذين أسلموا بعد الفتح بأمور كثيرة:

- سبقوهم في فضيلة الصبر علىٰ الأذىٰ، لأن بداية الدعوة كانت من أشدّ مراحل الدعوة ضعفًا وخوفًا وشحًّا.. ونالهم من الابتلاء والأذىٰ ما تنوء بحمله الجبال الرواسي، وحُوصروا في شِعْب أبي طالب حصارًا لا مثيل له.. وهاجروا إلىٰ المدينة المنورة فرارًا بدينهم، مؤْثِرين الله والدار الآخرة علىٰ المال والعشيرة والوطن، ولهذا قال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد عندما تلاحىٰ مع عبد الرحمن بن عوف: (لا تسبّوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه).
- وسبقوهم في العلم، فقد كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات التي تنزّل عليه، ويبيّن

لهم أحكامها وأسباب نزولها، كما كان ﷺ يتعهّدهم بالعلم والمعرفة في مدرسته العظيمة –دار الأرقم بن أبي الأرقم–، وأصبح المسجد النبوي بديلاً لهذه الدار بعد الهجرة إلىٰ المدينة، واستمرّ السابقون الأولون ينهلون العلم من مصدره العذب الذي لا يخالطه أي شائبة، ثم ينتقلون إلىٰ تدريس غيرهم من الصحابة: فهم – السابقون الأولون– في مجموعهم أكثر علمًا من الصحابة الذين أسلموا بعد الفتح، ولا يتعارض هذا مع قول: هناك آحاد من المتأخّرين لازموا رسول الله ﷺ، ولم يشتغلوا بغير طلب العلم، ونالوا نصيبًا من العلم تفوّقوا به علىٰ بعض السابقين الأولين.

- وسبقوهم في الخبرة وإدارة الأمور، لأنهم رأوا كيف كان رسول الله ﷺ يتعامل مع المشركين من أولي قرباه ومن غيرهم، وشاهدوا رسول الله ﷺ وهو يطوف علىٰ وفود القبائل الذين يشهدون المواسم في مكة يدعوهم إلىٰ الله، ويسألهم أن يصدّقوه وينصروه، وكانوا يتعلّمون منه إصراره علىٰ الحق، وكيف يواصل الليل مع النهار والسرّ مع الإعلان، لا يشغله أمر من أمور الدنيا عن الصدع بلا إله إلا الله. وكانوا يعرضون عليه ﷺ مشكلاتهم الخاصّة والعامّة، وبشكل أخص المشكلات التي يواجهها العبيد والمضّطهدين الذين أسلموا، وكان ﷺ يجيب عن أسئلة الصحابة، ويضع الحلول الناجحة لهم، ويدفع الأغنياء إلىٰ رعاية الفقراء وإطعامهم، فمن هذا الذي يدّعي أنه يضاهي السابقين الأولين في العلم والمعرفة والفضل؟!

لنحمل هذه المعاني الرائعة من علم وخبرة وتربية السابقين الأولين، ونحاول تطبيقها علىٰ الدعاة والجماعات الإسلامية المعاصرة:

المشكلة الأولىٰ:

التي تواجهنا عند التطبيق هي فقدان القادة الذين بلغوا مرحلة الاجتهاد، بل فقدان القادة الذين هم دون مستوىٰ قريب من الاجتهاد، ومن البديهيات أن فاقد الشيء لا يعطيه، فمن أراد طلب العلم داخل جماعته لا يجده، وقد يستعيرون شيوخًا من خارج الجماعة لتدريس العلوم الشرعيّة، أو قد يحوّلون الأعضاء إلىٰ شيوخ لا يؤمنون بالجماعات وأهدافها ويعاني طالب العلم تناقضًا في تربيته، فالذي يقرّره الشيخ خلاف الذي تقرّره الجماعة، ولابد له أخيرًا من الاختيار:الشيخ أو الجماعة!!

المشكلة الثانية:

تتجلّىٰ في انشغال الأعضاء والموجّهين ومعظم القادة بالوظائف التي استحوذت علىٰ أهمّ أوقاتهم، وبعد انتهاء العمل الوظيفي اليومي، ينتقل الداعية بهمومه الناتجة عن سوء تعامل المسؤولين عنه إلىٰ البيت، فيؤدّي ما يجب عليه نحو أهله وأولاده، ويصعب خلوّ البيت من هموم ومشكلات. فماذا يبقىٰ للدعوة والعمل الجماعي والتخطيط من الوقت في يوم الداعية؟!

ولست أشك أن نظام الوظائف في بلدان العالم الإسلاميّ رسمه المستعمر عندما كان يخيّم علىٰ صدورنا، ويتحكّم بجميع شؤون حياتنا، وبقي هذا النظام الفاسد بعد رحيل المستعمر العسكري شأنه كشأن الدساتير والقوانين والأنظمة والمراسيم الأخرىٰ، ومن جهة ثانية، فالذين يتربّعون علىٰ هرم الوظائف أكثر فسادًا من النظام نفسه. وفي ظل هذه الأجواء المحمومة يقضي الدعاة الجزء الأكبر من أوقاتهم.

والمناهج هي المشكلة الأخيرة، لأنها تحوي فقرات ليست ذات جدوىٰ:

فمنها: دفاع الجماعة عن نفسها، واستنباط الأدلة التي تعزّز هذا الرأي.

ومنها: هدر الأوقات في التنافس مع الجماعات الأخرىٰ بدلاً من التعاون.

وما تبقّىٰ من الفقرات الشرعيّة والتربوية، فكثيرًا ما يتم تجميدها أو تأجيلها، لأن هناك أحداثًا مهمّةً كالانتخابات (البرلمانية) وغيرها، والجماعة تجنّد كلّ إمكاناتها طوال مدّة هذه الأحداث التي لا تنتهي من كثرتها وتعدّدها.

وماذا يعني السابقون الأولون في هذه الجماعات إذا كانوا ليسوا من أهل العلم، ولم يجدوا في جماعاتهم العلماء الذين يعوّضونهم ما خسروه، ولا الوقت الكافي لدراسة العلوم الشرعيّة. فالسابقون الأولون إذا فقدوا الشروط التي يجب أن تتوافر في أهل الحلّ والعقد لا يجوز إسناد هذه الوظائف إليهم، وعندما نستعرض أسماء السابقين الأولين من الصحابة رضوان الله عليهم نجد أن بعضهم لم يستعمله رسول الله ﷺ: فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي ثم قال: ((**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيّ وندامة، إلا من أخذها بحقّها، وأدّىٰ الذي عليه فيها**)) (١).

فأبو ذر كان ربع الإسلام، وفي رواية أخرىٰ كان خامس خمسة، وقال عنه رسول الله ﷺ: ((**ما أقلّت الغبراء، ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجةً من أبي ذر**)) (٢)، وهناك أحاديث أخرىٰ في فضائله، ورغم ذلك لم يستعمله رسول الله ﷺ، لأنه ضعيف.

أجل، فالأقدمية وحدها لا تكفي، وخير للجماعة أن تختار أحد رجالات الطبقة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب: كراهية طلب الإمارة والحرص عليها.

(٢) قال عنه محقق سير أعلام النبلاء: حديث قوي بشواهده ج٢/ ٥٩.

المتأخّرة إذا اشتهر عنه الصلاح والورع، وتوفّرت فيه الشروط التي يجب أن تتوفّر في أهل الحق والعقد من أن تُبْتَلىٰ برجل جاهل، لأنه من السابقين الأولين فيها.

الفائدة الثالثة: لكلٍّ دوره:

لكلّ صحابي دور محدّد يؤدّيه، ورسول الله ﷺ هو الذي يتولّىٰ تحديد هذه الأدوار، والإشراف علىٰ تنفيذها، فإذا تأخّر ناسٌ من الصحابة عن غزوة من الغزوات قام رسول الله ﷺ باستدعائهم بعد عودته إلىٰ المدينة، ومحاسبتهم، وفرض العقوبة اللازمة عليهم إذا لم يكن لهم عذر قاهر، ومن الأمثلة علىٰ ذلك قصة كعب بن مالك ورفاقه الذين تأخّروا عن غزوة تبوك.

ومن المهمّات والمسئوليات التي أُسندت للصحابة ما يأتي:

- منهم من كان مكلّفًا بخدمة رسول الله ﷺ، وبعض هؤلاء الخدم كانوا من مواليه.
- ومنهم كُتّاب الوحي، وكُتّاب الرسائل التي يبعثها رسول الله ﷺ إلىٰ ملوك عصره، وإلىٰ الأمصار التي دانت الإسلام.
- ومنهم رسله إلىٰ الملوك.
- وأربعة منهم كانوا مختصّين بالأذان.
- ومنهم من كان مسؤولاً عن حراسته ﷺ.
- ومنهم القوّاد العسكريون الذين كان ﷺ يكلّفهم بقيادة السرايا التي يبعثها ﷺ إلىٰ أماكن معينة.
- ومنهم أمراء الأمصار، كاليمن، وحضرموت، ونجران، وعمان، وتيماء، ومكة.
- ومنهم الذين كانوا يذبّون عن الإسلام بِشِعْرِهم وخُطبهم، وهناك مسئوليات

أخرىٰ غير هذا الذي ذكرناه.

وكان للشباب دور في هذه المسئوليات، وأصحاب رسول الله ﷺ كانوا شبابًا، فأكبرهم سنًّا عند البعثة كان لا يتجاوز الأربعين عامًا، ومن الشباب الذين اختارهم رسول الله ﷺ لأخطر المهمات:

- عليّ بن أبي طالب، وكان عمره عندما أسلم دون سنّ البلوغ، وكان هو وطلحة والزبير في سن واحدة.

- مصعب بن عمير أرسله رسول الله ﷺ [عمره لا يتجاوز خمسةً وثلاثين عامًا] إلىٰ المدينة بعد بيعة العقبة الأولىٰ ليقرئهم القرآن، ويفقّههم في الدين، وأدّىٰ دوره بنجاح وشهد -رضي الله عنه- بدرًا واحدًا، وقُتل فيها وعمره يقارب الأربعين عامًا، وكذلك كان عُمُر جعفر بن أبي طالب عندما قُتل في غزوة مؤتة.
- أسامة بن زيد كلّفه رسول الله ﷺ بقيادة جيش المسلمين، وعمره أقل من عشرين عامًا، وكان تحت إمرته في هذا الجيش أبو بكر وأمثاله، وتُوفي رسول الله ﷺ، وكان الجيش لا يزال في أطراف المدينة.
- وعبد الله بن عباس الذي ساد الناس بعلمه، وكان عمر بن الخطاب يستفتيه في المسائل المهمّة وهو من أصغر الصحابة سنًّا، كان عُمره عندما تُوفي رسول الله ﷺ لا يزيد علىٰ خمسة عشر عامًا، وكان -وهو في هذا السن- يلازم رسول الله ﷺ ويتعلّم منه.

وقبل الانتقال إلىٰ الفائدة الأخرىٰ لا بدَّ لنا من تسجيل الملاحظات الآتية:

١-لم تكن هذه الاختيارات عفويّةً، وحاشا الله أن نجد في سيرة رسول الله ﷺ مثل

ذلك. لقد كان الرجل المناسب يوضع في مكانه المناسب، وكان المفضّل يقدّم علىٰ الأفضل في الأمور العسكرية أو في غيرها إذا كان هو الأكثر ملائمةً، ولم تكن السلطة قاصرةً علىٰ فئة محدّدة لا تتجاوزها، وهذا الذي يسمّىٰ اليوم بالمركزية، والمركزية تقتل المواهب، ولكن لابد أن تتوفّر في جميع الذين يقع عليهم الاختيار شروط أهل الحلّ والعقد.

٢-ربّىٰ الصحابة -رضوان الله عليهم- علىٰ الجندية والتضحية والإيثار، فأبو بكر وعمر ما كانا يجدان أي غضاضة في قيادة أسامة بن زيد لهما، ولغيرهما من السابقين الأولين، وأمين الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح ما كان يجد أيّ بأس في قيادة خالد بن الوليد له، ولا كان خالد يجد أي حرج في تسليم القيادة لأبي عبيدة عندما جاءه أمر عمر، وصدق فيه قول الشاعر:

وانضـمّ للجيش يمشـي تحت رايته ... وعزّة النفس لم تجرح حواشـيها

فعُمر كان لا يريد أن يكِل الناس إلىٰ خالد وبطولاته، وخالد كان يقاتل لله وليس لمنصب أو جاه، وهذه صفة من الصفات التي ميّزت جيل الصحابة عن الأجيال الأخرىٰ، وهذه هي مشكلة من أهم المشاكل التي تواجه الدعاة والجماعات الإسلامية المعاصرة.

٣-رغم تعدّد المسئوليات وكثرتها وشمولها لجميع طبقات الصحابة، نلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يقع اختياره علىٰ منافق واحد، ولو كان من المغمورين الذين لا يعرف أحد عنهم نفاقًا، ومع إيمانهم بدور العصمة في هذا الاختيار، فهناك سببان آخران:

الأول: الشروط الشرعيّة اللازمة لمثل هذه المسؤوليات لا تتوفّر في منافق، ولو كان

مغمورًا مجهولاً.

والثاني: فراسة رسول الله ﷺ في الرجل، وعمق معرفته بالذين يتعامل معهم، وعندما يكون القائد في مستوىٰ المسؤولية، ويلتزم بالشروط الشرعيّة في اختياره لمساعديه، لن يستطيع منافق اختراق صفه، أو استغفاله.

الفائدة الرابعة: الحذر:

بدأ النّفاق يذر قرنه في المدينة بعد غزوة بدر الكبرىٰ التي أعزّ الله بها دينه، وأذلّ الكفر والكافرين، وبقي الإسلام عزيزًا رغم ما يعتري المسلمين من ضعف في بعض الأحيان.

ومن الأدلة الكثيرة علىٰ قوة الإسلام نختار المثال الآتي:

الطغاة في بلدان العالم الإسلاميّ يحاربون الإسلام حربًا شعواء، ويصدّون عن سبيل الله، ويرسّخون دعائم الخبث والإلحاد والزندقة، لكنهم لا يعلنون خططهم وأهدافهم، ويلجأون إلىٰ وسائل غاية في الخبث والمكر. فهم يشهدون الصلاة مع المسلمين في المناسبات الدينية العامّة، كصلاة العيدين، وصلاة الجمعة في بعض الأحيان، ويردّدون في التصريحات الصادرة عنهم إيمانهم بالإسلام، واهتمامهم بالمساجد، ويتّهمون الدعاة والجماعات الإسلامية بالمتاجرة بالدين، واتخاذه مطيةً من أجل تحقيق مكاسب سياسيةً، لا علاقة للدين بالسياسة -علىٰ حدّ زعمهم-، فالدين عبادة وسموّ ورفعة، والسياسة ألاعيب واجتهادات شخصية، ويجدون من الشيوخ العاملين في مؤسساتهم من يؤمّن علىٰ أقوالهم، ويقدّم لهم الفتاوىٰ التي يطلبونها، والرسائل والمقالات التي ينالون فيها من الدعاة العاملين الصادقين، وتبرز وسائل إعلامهم هذه الحملة الظالمة المحمومة وكأنها حرب علىٰ الجماعات والأحزاب التي تتاجر بالدين وليس علىٰ الدين، ويصدّق

بعض الناس ما يرون ويسمعون ويقرأون.

هذه الأساليب التي يستخدمها الطغاة في بثّ سمومهم أخطر مرّات ومرّات من الأساليب التي كان عبد الله بن أبي وزبانيته يستخدمونها ضدّ رسول الله ﷺ وأصحابه، ولن نتمكّن من الصمود إلا إذا رفعنا شعار الحذر واليقظة، وعرفنا سبل المجرمين ومكائدهم، وأغلقنا الثغرات حتىٰ لا يجدوا أي مدخل ينفذون منه إلىٰ داخل صفوفنا، ويعيثون بها فسادًا وتخريبًا.

وإذا كانت معارك الموحّدين الدعاة مع الطغاة دائمةً ومستمرّةً، فإن شعار الحذر يجب أن يستمرّ مرفوعًا، فهناك مراحل تتضاعف فيها الحاجة إلىٰ الحذر، ومنها هذه المرحلة التي مضىٰ عليها أكثر من عقدين، وشهدنا فيها سقوط أصنام متعدّدة: شهدنا سقوط الصنم القومي العلماني، والصنم الثوري الاشتراكي، وشهدنا سقوط رائد القومية والتقدّمية والوحدة، الصنم الذي عبده كثير من الجماهير من دون الله.

كفر الناس بهذه الأصنام كلّها، وأيقنوا أن بُعدهم عن الإسلام هو سبب هذه الهزائم المتكرّرة، وعاد الشباب إلىٰ دين الله أفواجًا، وأصبحت الصحوة الإسلامية حديث الشرق والغرب، وقويت شوكة الجماعات الإسلامية، كثر أنصارها، وبات الناس كلّ الناس يترقّبون قيام أنظمة إسلامية في عدد من البلدان الإسلامية.

إن قوة الدعاة والجماعات الإسلامية مسألة تهدّد كلّ طاغية وتنذر بزواله، فلابد من تسخير جميع إمكاناتهم وتنسيق جهودهم من أجل وأد الصحوة في مهدها، ومن الأساليب التي يستخدمونها كما قلنا فيما مضىٰ: زرع جندهم داخل الصف الإسلاميّ، والعمل علىٰ ضرب هذا الصفّ من داخله، وهذه المرحلة التي تضاعف فيها الحاجة إلىٰ

الحذر، واتباع هدي رسول الله ﷺ.

الفائدة الخامسة: منهج مناسب لكل عصر:

انتهينا فيما مضىٰ من هذا البحث إلىٰ الأمرين الآتيين:

- كان ﷺ يختار أمراءه وولاته من الصحابة الذين تنطبق عليهم الشروط الشرعيّة التي ينبغي أن تتوفّر في أهل الحلّ والعقد، وكانت الأفضلية للسابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم.

- استمرّ هذا النهج بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبلغ التطبيق أوجه في عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي كان يتشدّد في اختيار الولاة، وكان في شخصه قدوة حسنة لكل مسؤول، فتراه يجوع إذا جاعت الرعية، ويشبع إذا شبعت.

وتُدار شؤون هذا الكيان الضخم بطريقة بسيطة علىٰ كلّ من التزم هدي رسول الله ﷺ، فرأس هذا الجسد الإسلاميّ: أمير المؤمنين، وحوله عدد من السابقين الأولين: منهم من يحفظ كتاب الله، ويعرف سبب نزول آياته، ومنهم من اشتهر بالقضاء والإفتاء، وكل منهم يحفظ عددًا جيّدًا من أحاديث رسول الله ﷺ، ويندر من الأحاديث التي لا يعرفها الخليفة ومن حوله.

وكانت مدينة رسول الله ﷺ عاصمة الخلافة، وموطن إقامة أهل الشورىٰ لا يغادرونها إلا لضرورة، وقد استمرّ دور المدينة العلمي المتميّز بعد عصر الصحابة، وتفصيل ذلك في أمهات كتب الحديث والفقه والأصول.

وتلي دائرة القيادة دوائر متعدّدة تمتدّ لتشمل: الجيوش، والسرايا، وشؤون بيت المال،

والقضاء، وإدارة الأمصار، ولا تخلو قرية ولا بادية من مسؤول يتصل برأس الجسد الإسلاميّ، لأن الفوضىٰ لا وجود لها في دولة الخلافة.

أما القواعد والأسس التي يتم علىٰ أساسها اختيار المسؤولين فثابتة، وأهمها: الأمانة، والتقوىٰ، وأن لا يكون المسؤول ممن يسعىٰ ويعمل من أجل الوصول إلىٰ هذا المنصب، وتفصيل ذلك في كتب السياسات الشرعيّة.

لنفترض أن بعض المنافقين اقتحموا دائرةً من الدوائر، ولتكن إحدىٰ الولايات، فمن حق هذا الوالي علىٰ عامّة المسلمين وخاصّتهم تقديم النصح له، وعرض الأدلة التي تُثبت أن فلانًا وفلانًا من بطانته من أهل النّفاق، والواجب يُحتّم إبعاد المنافقين عن المسؤوليات التي أُنيطت بهم إن صحت الأدلة. وإذا أهمل الوالي النظر في النصيحة فما علىٰ الناصح إلا أن يقابل الخليفة، ويعرض عليه المشكلة، ولن يجد عوائق تمنعه من النهوض بهذا الواجب، فليس هناك استبداد ولا إرهاب ولا تنكيل ولا اضطهاد والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة، منها المرأة التي ردّت علىٰ عمر بن الخطاب عندما أخطأ في قضية المهور، وكان يخطب الجمعة، فصحّح خطأه، ولم يقل لها أحدٌ لماذا تردّين علىٰ أمير المؤمنين أمام عامّة الناس؟

وما دام أن رأس الجسد سليمًا ومعافىٰ، فلسوف يقتلع هذه النبتة الخبيثة من الأرض الطيبة المعطاء، ويصلح الخلل، ويحصّن صفّ الولاية حتىٰ لا يُخترق مرّةً ثانيةً، ولن يسلم الوالي من العقاب، وسيكون عبرةً للوالي الذي يأتي بعده.

وهذا الذي نقوله حقيقة ملموسة، وليس كلامًا نظريًّا أو أحلام يقظة، ومن يدرس سيرة الخلفاء الراشدين يجد أمثلةً كثيرةً علىٰ ذلك.. وبعد مرور بضعة عقود ضعف الرأس،

فضعفت المراقبة، وتسلّل أصحاب المصالح والأهواء إلىٰ أعلىٰ المناصب، وتنافس الناس في امتلاك الأرض، وبناء القصور.. في هذه الأجواء جاء الخليفة عمر بن العزيز، فردّ الرعية إلىٰ وضع شبيهٍ بالوضع الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، وعهد الشيخين من بعده، وأثبت مرّةً أخرىٰ صلاحية هذا المنهج للتطبيق شريطة أن يبدأ الخليفة بنفسه ومن حوله، والعجيب في سيرة عمر بن عبد العزيز أنه أحدث هذا التغيير الشامل في كيان الدولة في فترة زمنية لا تكاد تبلغ ثلاث سنين.

وكانت الأمور بعد عمر بن عبد العزيز بين مدّ وجزر، ومع ذلك فأحداث تاريخنا الإسلاميّ ووقائعه تؤكّد أنه كلما انحرف الحكام عن جادة الصواب، سخّر الله لهذه الأمّة من يجدّد أمر دينها، ويستبعد أهل النّفاق والفسوق والعصيان، ويأتي بخيار الناس علمًا وورعًا وتقوىً، ويثبت صلاحية المنهج النبوي للتطبيق في كلّ عصر ومصر.

هناك من يقول: من الممكن الالتزام بهدي رسول الله ﷺ مع المنافقين إذا كان العدد قليلاً، أما عندما يزداد العدد، ويكثُر الموجِّهون، فإن ضوابط الالتزام تضعف، ويصبح الاختراق ممكنًا.

الذين يردّدون هذا القول تناسوْا حقائق التاريخ الثابتة، فعدد الصحابة في السنوات الأخيرة من البعثة النبوية تضاعف أضعافًا مضاعفةً، ولقد بلغ عدد الذين شهدوا حجة الوداع منهم أكثر من مائة ألف [١]، ومع ذلك فقد بقيت الصفوف مُحصّنةً ضدّ أيّ اختراق، وإجماع الأمة انعقد علىٰ أن الصحابة كلهم عدول، وإن كان بعضهم أفضل من

(١) الذين شهدوا حجة الوداع ليسوا جميع المسلمين، لأن أهل اليمن وشبه الجزيرة العربية كانوا قد دانوا بالإسلام.

بعض.

فأية جماعة من الجماعات المعاصرة يبلغ عدد الملتزمين العاملين فيها مائة ألف؟!، وقد ذكرنا فيما مضىٰ شواهد علىٰ أن أعداءنا يخترقون حصون الجماعة التي لا يزيد عددها علىٰ الألف، فما بالك بعشرات الآلاف!!

وفي عهد عمر بن الخطاب انساحت الفتوحات في أرض الله الواسعة، وأصبحت دولة الخلافة تضمّ أكثر من عشرين دولةً من الدول المعاصرة، ورغم هذه المساحة التي تعدّ كبيرةً جدًّا حتىٰ في حسابات أهل هذا العصر، فلقد بقيت المقاييس ثابتةً وكما كانت في عهد رسول الله ﷺ وعهد الصديق رضي الله عنه، ولم يستطع المنافقون التسلّل حتىٰ إلىٰ إدارة ولاية من الولايات. وكذلك كان الحال في عهد عمر بن العزيز، ومن سبقه أو جاء بعده من الخلفاء المصلحين المجدّدين.

فالمشكلة إذن: ليست في ضخامة العدد إذا كان الأساس راسخًا، وإنما المشكلة عندما يكون الكمّ علىٰ حساب الكيف، لأن البعض تستهويه الكثرة، فيتساهل في قبول عضوية الأفراد في جماعته، وهذا التساهل أرضية خصبة للمنافقين، ومخالفة صريحة لسُنن الله في التغيير.

وكما أن للمسلمين مقاييس ثابتة في اختيار المسؤولين، فكذلك غيرهم، فالأحزاب العلمانية عندما تتسلّم مقاليد الحكم، تحتكر الوظائف القيادية في جميع المناطق والمدن، فإذا كان المسؤولون أوفياء للحزب ومبادئه سارت الأمور بالشكل الذي خطّط له القادة، وإذا كانت هناك نسبة في المراكز القيادية مدسوسة علىٰ الحزب الحاكم، مرتبطة بحزب آخر، فلسوف يأتي التطبيق سيئًا ومثيرًا لنقمة الشعب، وستبقىٰ هذه العناصر التي

تُظهر خلاف ما تبطن تعمل وتخرّب في الخفاء حتىٰ تهيّئ الأجواء لانقلاب يقتلع جذور الحزب الحاكم وأركانه، وسواء كان هذا الانقلاب مدنيًّا [الانتخابات النيابية] أو عسكريًّا [انقلاب عسكري]، فإن المدسوسين يحتلون مركز الصدارة في الانقلاب الجديد، ويؤدّون دورًا مهمًّا في فضح رفاق الأمس، وكشف مخازيهم، وبيان مخالفتهم للمبادئ والشعارات، التي يرفعونها، ويدعون إليها، وقد يتآمر هؤلاء المنافقون علىٰ الرفاق الجدد، لأن من قطع روابطه بالله (سبحانه وتعالىٰ) يستحيل أن يكون وفيًّا لعبيد الله، وهذا سبب مهم من الأسباب التي تميّز المؤمنين الموحدين عن الكافرين والمنافقين.

الفائدة السادسة: الدعاة معروفون:

الدعاة صفوة الناس، وخير خلق الله بعد الأنبياء والمرسلين: إنهم يشقون لتسعد البشرية، ويواصلون الليل مع النهار في عملهم وأنشطتهم من أجل هداية الحائرين، وإرشاد التائهين، وتعليم الجاهلين، وإذا آثر غيرُهم السلامةَ والعافية آثروا رضا الله وعفوه، ولو دفعوا ثمن ذلك دماءهم وأرواحهم وأموالهم.

والدعاة الذين هذه هي صفاتهم معروفون، ولو بلغ عددهم عشرات الملايين، فالمصلّون يعرفون خطيب المسجد الذي يصلّون فيه، والطلبة يعرفون الذين يدرّسونهم العلوم الشرعيّة، والقرّاء يعرفون الكُتّاب الإسلاميين، ويلتقون معهم في كتبهم وأبحاثهم، وعندما يُذْكَر داعية من الدعاة يواجهنا الاحتمالان الآتيان:

أولاً: يقال لنا: هو معروف في أوساط دعاة مدينته أو منطقته، ومشهود له بالعلم والعمل والفضل والتقوىٰ، واشتهاره المفاجئ في بلدان العالم الإسلاميّ جاء بعد وقوع الحدث [الفلاني] الذي هزَّ لضخامته أركان العالم الإسلاميّ، وراح الناس يبحثون عن

موقف شرعيّ فاصل في هذا الحدث، فتصدّىٰ هذا الداعية لهذه المهمّة التي جبن غيره عن التصدّي لها، فكانت محاضرته جوابًا شافيًّا عن أسئلة الحائرين، وحجرًا ألقم به أفواه المبطلين، ورغم قيود الظالمين وسدودهم فقد انتشر الشريط الذي سُجّلت فيه هذه المحاضرة في كلّ مكان، وتلقّاه الناس بالقبول والارتياح.

الثاني: ضابط مجهول قاد انقلابًا عسكريًّا، وبعد نجاح انقلابه، وتسييره لدفّة الحكم أخذ يتحدّث عن ضرورة الحلّ الإسلاميّ.. وعند السؤال عن سيرته الذاتية لم يجد الناس من يشهد له حتىٰ بارتياد المساجد فضلاً عن الدعوة إلىٰ الله، ولنفترض أن هذا الضابط تاب بين عشية وضحاها، فهذه التوبة تلزمه استبدال بطانته الفاسدة ببطانة وأعوان صالحين مصلحين، وإذا أصرَّ علىٰ بطانته الأولىٰ، واتخذ موقفًا من العلماء والدعاة ليس فيه أدنىٰ مودّة ولا محبة، فيكون قد حكم علىٰ نفسه أنه ليس صادقًا في توبته، وما أراد مما أقدم عليه إلا المتاجرة بالشعار الإسلاميّ، ولا بدَّ أن هذه المتاجرة تبرز بشكل صريح واضح من خلاله أقواله وأفعاله. وهناك حالات أخرىٰ تشبه حالة هذا الضابط:

منها: مستشرق يدخل الإسلام، ثم يتحوّل إلىٰ مُنظِّر في الشؤون الإسلامية، والمتتبّع لهذا التنظير يجده حافلاً بالانحرافات الخطيرة، والناس به معجبون، ولا يكادون يميّزون بين فرحهم بإسلامه، وحذرهم من القول والإفتاء والتنظير بما لا يعرف.

ومنها: كاتب علمانيّ يعلن توبته، ويسلك طريقًا مماثلاً للطريق الذي سلكه المستشرق، ومن بين الشواهد الكثيرة علىٰ هذا البروز المفاجئ والمشبوه نكتفي بعرض المثال الآتي:

برز فجأة ومن غير مقدّمات اسم طالب عربي يدرس في إحدىٰ الدول الغربية الكبرىٰ،

وصارت له صلات مع جهات رسمية عربية وأجنبية، وفور تخرّجه انتقل إلىٰ دولة عربية يحكمها جنرال مستبد، وأصبح مستشارًا له في الشؤون الإسلامية. وكان هذا الجنرال قد وصل إلىٰ الحكم قبل سنتين [من عمل المستشار عنده] علىٰ ظهر دبابة.

نشط المستشار في الدعوة لهذا الجنرال في أوساط الإسلاميين، وكان يرسله سيده في طائرة خاصة داعيًا إلىٰ مؤتمر إسلامي يشرف عليه الجنرال الذي فُتِنَ كثيرٌ من الدعاة به، وظنوا أنه مخلص في توجهه الإسلاميّ، وفعلاً فقد عُقد المؤتمر، وكان المؤتمرون في وادٍ والجنرال في وادٍ آخر، وجاءت النتائج مخيّبةً للآمال. ظهر الجنرال علىٰ حقيقته أمام المؤتمرين، ورغم استعداد المدعوّين في هذا المؤتمر إلىٰ التنازل والمساومة من أجل الالتقاء مع الجنرال في منتصف الطريق، فقد كانت الفجوة بين الطرفين أكبر من أن ترقع.

أدرك المستشار الداهية أن الأيام القادمة تنذر بشرٍّ مستطير، فمزاجية الجنرال متقلبة إلىٰ حدّ لا يُطاق، فقد يكون اليوم إسلاميًّا وغدًا علمانيًّا، وإذا غضب بطش وسفك الدماء، وما علىٰ المستشار الإسلاميّ إلا الرحيل قبل أن يصبح ضحيةً من ضحايا سيده.

سمعنا فجأةً ان المستشار انتقل إلىٰ بلد آخر، وأصبح المسؤول الفعلي في مؤسسة إسلامية رسمية كان له دور في إنشائها، فكيف ترك سيده الأول، وكيف اطمأنت إليه الدولة الثانية المعادية للدولة الأولىٰ؟ لا ندري، وكل الذي نعلمه أنه اختار العمل الإسلاميّ العالمي، وكان هدفه تطويع هذا العمل لسيده الأول، ثم لسيده الثاني، وفي الحالين فهو مستأجر، ويعمل من أجل أطماع دنيوية، وليس صادقًا مع الجهات التي يتعامل معها، ولعلّ فيما نقوله بعد قليل دليل علىٰ ذلك.

بقي سؤال مهم: ما هي المؤهّلات التي رشّحت هذا الطالب لعمل لا ينهض به إلا

الأفذاذ من الرجال؟

سألنا قادة العمل الإسلاميّ في بلده، فقالوا: الرجل غير معروف عندنا، ولم نسمع باسمه إلا وهو طالب في ديار الغرب، حث كان يحرص علىٰ إقامة تجمّعات إسلامية هشّة يسهل اختراقها، ويتجنّب الالتزام في جماعة من الجماعات الإسلامية المعروفة، وإن كان يتظاهر بتعاطفه الشديد مع إحدىٰ هذه الجماعات، ويضمن في المقابل موافقة هذه الجماعة علىٰ قيادته للتجمّع الإسلاميّ.

لا يُعد هذا الطالب من العلماء، ولا من طلاب العلم، ولم يكن لدراسته علاقة بالعلوم الشرعيّة أو الإنسانية.

لم نستغرب أن يصبح بعد تخرّجه مدرّسًا في معهد أو جامعة، ولا أن يكون عميدًا لكلية من الكليات، أما أن يكون مسؤولاً عن مؤسسة إسلامية عالمية في غير بلده، وليس لها أيّ علاقة باختصاصه، فهذا مما لا يعرفه ولا يجيب عليه إلا الراسخون في شؤون الأنظمة وطرق التعامل معها.

والشاهد مما نذكره أن اسم هذا الرجل قد اشتهر بين الجماعات والتجمّعات الإسلامية، لأن هذه المؤسسات لا تجد مثيلاً له في الخدمات والمساعدات التي يقدّمها، فهو الذي يرسل إليهم الكتب الإسلامية، وهو وأصحابه الذين يقومون بترجمة الكتب العربية إلىٰ لغات أجنبية ويرسلونها إلىٰ جمعيات الطلبة الناطقين بغير العربية، وهو الذي يتولّىٰ عقد المؤتمرات والمخيّمات واختيار المحاضرين الذين يستقطبون هذه التجمّعات، وهو الذي يقطف الثمرة، وهو الذي يبتعث عددًا غير قليل من الطلبة ليدرسوا دراسةً جامعيةً. وكل هذه الخدمات يقدّمها بالمجان وعلىٰ حساب أسياده، وغالبية

المستفيدين لا يدركون الثمن الذي يجنيه هذا الرجل من وراء هذه المعونات التي يجود بها من جيب غيره.

وقبل المضي في الحديث عنه نود الوقوف قليلاً عند المبادئ التي يؤمن بها ويعتقدها:

١-أسّس هو ومجموعة من أصحابه مؤسسةً عالميةً [وكل أعماله وأنشطته عالمية] فكريةً تعتمد المنهج الاعتزالي العقلاني فيما يصدر عنها من مؤلفات وبحوث، ويتبعه فرع استثماري له نشاطات واسعة -كما يقول المطّلعون علىٰ أحوالهم- ولهذه المؤسسة فروع في دول متعدّدة، وقد تمكّنت من استقطاب عدد كبير من الكُتاب الذين يؤمنون بهذا الفكر المنحرف، كما تمكّنت من اختراق بعض الجماعات الإسلامية في البلدان العربية، وفي شبه القارة الهندية، ولذلك أسباب، من أهمها تقديم المساعدات المادية لفروع هذه الجماعات هنا وهناك.

٢-يتعاون مع المؤسسة الإسلامية الرسمية في البلد الذي يقيم فيه، وهي سلفية في اعتقادها ومنهجها، ويخاطبها فيما يقدّمه إليها بهذه الصيغة (السلفية) التي تريدها، وقد قُدِّرَ لي الاطلاع علىٰ تقرير قدّمه لهذه المؤسسة يرسم فيه الشروط الواجب اتخاذها من أجل الحدّ من تغلغل المدّ الرافضي الإيراني في العالم الإسلاميّ، وشاركه في إعداد هذا التقرير[1] والتوقيع عليه أحد أعلام مؤسّستهم الفكرية، وهو من المعروفين بتبني والتزام المنهج الاعتزالي العقلاني. ومن يتصفّح ما كتبوه

(١) مع أن التقرير سريًّا فقد حصلت علىٰ نسخة منه وما زلت أحتفظ به، ومن جهة أخرىٰ فقد اطلعت علىٰ الوسائل التي كان يبعثها لأحد الإسلاميين المعروفين عندما كان طالبًا، وفيها ما يكشف حقيقة اتصالاته المشبوهة، وأدركت أن الذي ائتمنني علىٰ هذه الملفات لم يكن مدركًا لما تحتوي عليه، فلم أصوّر شيئًا منها، وأعدتها إليه كما اتخذتها، وجدير بالذكر أن ما كتبته عن هذا الرجل له علاقة بملفات يجهلها القرّاء.

يبهره كثرة ترادهم لذكر السلفية والسلفيين، وكأنهم من روّاد هذه المدرسة.

٣-كان يُعربُ في جلساته الخاصة عن إعجابه بثورة الرافضة في إيران، وظنّ أحدهم أن هذا التأييد مرتبط بعلاقته الحميمة مع الدكتور إبراهيم يازدي وزير الخارجية السابق الذي كان زميلاً له في الدراسة، فقال له: ماذا تقول عن خلاف جناح يازدي مع الخميني، وعن إبعاده عن وزارة الخارجية؟ فأجاب: يازدي مخطئ والحق كلّ الحق مع قائد الثورة الإمام الخميني.

وإذن: ماذا نقول عن اعتقاد هذا الرجل، وعن المبادئ التي يؤمن بها ويدعو إليها؟!

هل نقول: هو عقلاني اعتزالي؟! أم نقول: سلفي، مع أن مواقفه معادية للسلفية والسلفيين؟! أم نقول: هو من الذين يؤيّدون ثورة الرافضة؟! أم نقول: إن المبادئ لا قيمة لها في حياته؟!

لنمض بعد هذه الوقفة في حديثنا عن الاختراقات التي حقّقها هذا الرجل.

لقد تعاقد مع مؤسسة اقتصادية كبيرة يملكها أحد كبار التجار العرب، وهذا العمل الجديد يعني لأول وهلة أنه حصل علىٰ راتب مغرٍ، كما يعني أيضًا أنه قرّر اعتزال أنشطة الدعوة العالمية المشبوهة، لأنه من المتبادر إلىٰ الذهن أن مثل هذه الشركة لا علاقة لها بالأنشطة الدعوية العالمية، وهذا الذي يعرفه الناس عنها، غير أن أخبار من لم نزوّد قالت: تولّىٰ هذا الرجل مسئولية الأعمال الخيرية في هذه الشركة، وأصبح الرجل الأول القادر علىٰ إنفاق حوالي مائة مليون دولار كلّ عام بالشكل الذي يريد، بينما كانت الميزانية التي يتصرّف بها فيما مضىٰ لا تتجاوز مليون ونصف المليون من الدولارات، وكان هذا المبلغ المتواضع يحرجه أمام الذين يساعدهم، كما كان يحدّ من طموحاته.

وبعد تسلّمه مهام عمله الجديد تمكّن من تشكيل مكاتب تابعة في كثير من بلدان العالم، ووظيفة هذه المكاتب مدّه بكل ما تحصل عليه من معلومات عن أحوال ومخططات الدعاة والجماعات الإسلامية.. لماذا؟!

استغلّ هذا الرجل مسألة التمويل، وهي من أشدّ نقاط الضعف عند هذه الجماعات، فالمموّل لا بدَّ أن يعرف حاجة الجماعة إلىٰ هذه المساعدة، وأين ستذهب بها. وهذا مدخل أمني خطير، فكما قلنا سابقًا: إن الجماعات هي التي تسعىٰ إلىٰ المموّل وليس العكس، ويستطيع هذا المموّل استغلال حاجة الجماعات، والتي تمتنع عن تقديم ما يريد، أو تمارس أنشطةً لا يرضاها، تُحرم من المساعدة، وتضّطر أخيرًا إلىٰ الرضوخ. ويطمع المموّل فيتدخل مرّةً أخرىٰ من أجل تغيير هدف أساسي من أهداف الجماعة. وتدخل هذه الجماعة معه في مفاوضات شاقّة، وتتنازل شيئًا فشيئًا. وفي النهاية تلغي هذا الهدف، وهذا غير الاختراقات التي تحقّقها الجهة المموّلة عن طريق شرائها ذمم بعض المسؤولين في هذه الجماعات، فيصبح الطريق سالكًا أمامها لتحقيق كلّ ما تريده.

ولا أقول: إن كلّ الجماعات تخضع لمثل هذه الأساليب، فإن منها من يرفض استقبال هؤلاء الملوّثين، بل التعامل معهم، ويرضىٰ شظف العيش وحياة البؤس والفاقة.

ومن المؤسف أن المنظمات والمؤسّسات اليهودية والصليبية، لا تعاني مثل هذه المشكلات، لأنها تعتمد علىٰ تمويلها الذاتي، وتمتلك إمكانات كبيرةً تصل عند بعضها إلىٰ بضعة مليارات من الدولارات، والتي تقبل المساعدات منها تتلقّاها دون الدخول في مساومات مع المحسنين، ومن غير أن تتنازل عن أيّ شيء من أهدافها وخططها.

وأخيرًا: لا يزال صاحب هذه المؤسّسة الاقتصادية الخاصة متمسّكًا [١] بهذا الرجل رغم اعتراضات بعض الأقارب والشركاء، واتهاماتهم له بإغداق هذه الأموال علىٰ الجهات التي يرضىٰ عنها وتستجيب لأهوائه، وحجبها عن المستحقّين الصادقين الذين يرفضون شروطه. ولا يزال المتصرّف الأول في الأموال الخيرية التي تنفقها هذه المؤسسة، مع أن صاحب المؤسسة رجل طيّب محسن، ولا يرضىٰ بغير عقيدة أهل السُّنة ومنهجهم بديلاً؟!

(١) أجبر علىٰ التخلي عنه أخيرًا لأسباب عرفنا بعضها، وما زلنا نجهل بعضها الآخر.

نتائج البحث

- إذا كان عمر بن الخطاب يخشىٰ علىٰ نفسه من النّفاق.

- وإذا كان ابن أبي مليكة يقول: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلّهم يخاف النّفاق علىٰ نفسه.

- وإذا كان أول من تُسَعِّر بهم نار جهنم رجل استشهد في سبيل الله، وعالم تعلّم العلم وعلّمه، وغني وسَّع الله عليه فما ترك من سبيل يحب الله أن ينفق فيها إلا أنفق. ورغم ذلك فقد كان هؤلاء أولَّ من تُسَعَّر بهم النار، لأن الأول قاتل ليقال عنه جرىء، وقد قيل، والثاني تعلّم ليقال عنه عالم، وقد قيل، والثالث أنفق ليقال عنه جواد كريم، وقد قيل.

إذا كان هذا ما يخشاه الصحابة والتابعون وهم من هم، فماذا نقول عمن يرائي في صلاته وزكاته وسائر أمور عبادته؟ وماذا نقول عمن إذا عمل عملاً طيّبًا أذاعه بين الناس بعد أن يضيف إليه ما ليس فيه: فهو الكريم الذي ينفق أحبّ ما يملك من رزق ومتاع في سبيل الله.

وهو الداعية الجرىء الذي قال كلمة الحق في وقت جبُن غيره عن الجهر بها.

وهو العالم الذي ذاع صيته، وكثر طلابه، وتعدّدت مؤلفاته.

لا أجد ما أقول عن أنفسنا وأعمالنا إلا أبيات أبي العتاهية:

أحســن الله بنا أن الخطايا لا تفوح ... فإذا المســتور منا بين ثوبيه فضــوح

- ومن أجل أن تكون أعمال الموحّدين مجرّدةً من الهوىٰ والرياء، خالصةً لوجه الله تعالىٰ لابد من استحضار النية، قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه) [رواه البخاري ومسلم].

وبهذا الحديث صدَّر البخاري كتابه الصحيح، وأقامه مقام الخطبة له، إشارةً منه إلىٰ أن كلّ عمل لا يُراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي: لو صنّفت كتابًا في الأبواب لجعلت حديث عمر بن الخطاب في الأعمال بالنيّات في كلّ باب. وعنه أنه قال: من أراد أن يصنّف كتابًا فليبدأ بحديث الأعمال بالنيّات. وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها، فقد نُقل عن الشافعي أنه قال: هذا الحديث ثلث العلم، ويدخل في سبعين بابًا من الفقه، وقال الإمام الشافعي عن هذا الحديث: ما ترك لمبطل، ولا مضارّ، ولا محتال حجّةً إلىٰ لقاء الله تعالىٰ[1].

- إنني أنصح الدعاة بتتبّع الآيات القرآنية التي تتحدّث عن صفات المنافقين، وخططهم، وأساليبهم الملتوية، ثم يتدبّرون معانيها فيما يتيسّر لهم من كتب التفسير المتعدّدة. وليس كالقرآن واعظًا ومربيًّا ومعلّمًا. وعليهم بعد ذلك النظر في أحوالهم، فقد يكون هذا الداعية من الذين اعتادوا علىٰ توثيق كلامهم بحلف الأيمان، فيتبيّن لهم بأن الحلف في هذا الموضوع من صفات المنافقين.

وقد يكون من الذين لا يقيمون وزنًا للوعد، مع أنه رجل صالح.. فيعلم بعد قراءته

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب، وفيض القدير.

الهادفة لكتاب الله بأن من صفات المنافق أنه إذا وعد أخلف، وعندئذٍ يتدارك نفسه، وهكذا، ثم ينظر في أحوال أصدقائه ومحبيه، فيختار من بينهم من يعينه علىٰ طاعة الله.

- ترتكب الأحزاب الإسلامية خطأً فادحًا عندما يحل الصراع والتنافس فيما بينها محلّ التكامل والتآلف، ففي أجواء التنافس المذموم يشتدّ الصراع حول كسب الأنصار والمؤيّدين.

وفي ظل هذه الأجواء الملوّثة يعمد كلّ طرف إلىٰ نشر أسرار ومثالب الطرف الآخر، ويتساهل الجميع -إلا ما شذّ وندر- في شروط قبول الأعضاء، ومن هذه الثغرات يتسلّل الجواسيس والمنافقون، ويؤدّون دورًا هدّامًا داخل هذه الأحزاب.

ومثل هذه الاختراقات تكثر بين جماعات الجهاد البدعي، لأنهم أحداث الأسنان، قليلوا العلم والخبرة، لا يبالون بخطورة القرارات التي يتخذونها. فما أحوج هؤلاء وأولئك إلىٰ العلم بأن العبرة بالكيف وليس بالكمّ!!

- لابد من الانتباه والحذر من كلّ داعية يرتفع اسمه فجأةً، كما أنه لابد من معرفة من شهره: هل شهره علمُه وتقواه واستقامتُه؟ أم شهرته أجهزةُ الظالمين المستبدّين؟ وهذه لا تشهر أهل الصلاح والتقوىٰ، ولا تأبه لعلم من وقع عليه اختيارها، وكلّ الذي تريده منه أن يكون مطيعًا، ولا يخالف سياستها بقول أو عمل.

- تاريخ المرء حلقات متصلة، ولا يجوز فصل حلقة عن أختها، ويصعب قبول قول من يرىٰ بأن فلانًا قد انحرف فجأةً، والصحيح فيما أرىٰ أن اكتشاف الانحراف جاء متأخّرًا، إما بسبب براعة المنحرف، أو لأن المسؤول عنه كان يبصر علامات النّفاق بصاحبه، ويغض الطرف عنها، لأن عين الرضا عن كلّ عيب كليلة.

- كلّ من يعتنق الإسلام من الكفار ينبغي أن يتبوأ المكانة التي يستحقّها إذا حسُن إسلامه، ويجب الحذر من إشهاره وتوثيقه بسرعة. وكذلك الحال مع الزنادقة والمنافقين والمرتدّين عندما يعلنون توبتهم. ومن هدي رسول الله ﷺ أنه لم يؤمِّر منافقًا، وسار علىٰ نهجه الشيخان -رضي الله عنهما-، فلم يؤثر عنهما تأمير أحد من المنافقين أو من المرتدّين بعد توبتهم.

-أُحَذِّر إخواني الدعاة من صنفين من الناس:

الصنف الأول: مستبدّ متمسّك برأيه، لا يحيد عنه، ولا يرضىٰ بسواه، وإن كان موضع إجماع إخوانه. لا يجوز أن يتمكّن المستبدّ من القيادة، لأنه إذا مُكِّن سيعيد كلّ مستبدّ ظالم، سيقرّب كلّ مراءٍ يؤمن علىٰ قوله، ويشيد بكل فعل يفعله، ولو كان واضحًا بطلانه وفساده، ويبطش بكل من يعارضه ولو كان حكيمًا لا يستغني عن استشارته ومشاركته في القرارات المتخذة، ويتجاهل أو يستبعد أقرانه، لأنهم يعرفون تاريخه، وما فيه من سقطات.

قد يكون المستبدّ صاحب مواهب نادرة، وقد يكون قياديًّا من الطراز الأول، ويصعب أن تجد الجماعة من يسد مسدّه. وقد يحني رأسه أمام العاصفة التي تهدّد مستقبله، فيلين لإخوانه، ويكثر من استشارتهم، كلّ هذا لا يسوّغ تمكينه، لأن ما يبنيه خلال أعوام يهدمه بساعات.

الصنف الثاني: رجل عليم اللسان، يكره المواجهة، ويتسلّح بالصمت في أكثر مواقفه، ويحاول إرضاء الجميع، ويسعىٰ للمصالحة بين المتخاصمين، إذا اختليت به، وشرحت له موقفك في قضية من القضايا، أبدىٰ لك اقتناعه الكامل، وأضاف لأدلتك التي ذكرتها

أدلةً أخرىٰ أنت غافل عنها، وينعقد مجلس أهل الحلّ والعقد في الجماعة بعد لقائك به بأيام، ثم تطرح وجهة نظرك نفسها التي حظيت بموافقته، ويحتدم النقاش بين مؤيد ومعارض، وصاحبك صامت لا ينبس ببنت شِفة، وإذا ألزمه المجتمعون بإبداء رأيه، تراه يلف ويدور، ثم لا يخرج المستمعون بشيء.

الغريب في الأمر شعور الجميع -رغم تضايقهم منه- بالحاجة إليه، لأنه يتقرّب لكلّ طرف، ويُشعره بأنه ليس بعيدًا عنه. أمثال هذا الصنف هو الذي يتولّىٰ القيادة في النهاية، وعندما يتسنّىٰ له ذلك يتحوّل ضعفه إلىٰ قوة، وتردّده إلىٰ عزيمة.

إنني لا أشك بأن الصنف الأول أقل خطورةً ودهاءً ومكرًا من الصنف الثاني. وفضلاً عن ذلك فهو ساكت عن الحق، والساكت عن الحق عند الحاجة إليه شيطان أخرس.

وقصارىٰ القول: إن العمل الجماعي من أجل استئناف حياة يكون الدين فيها كله لله في بلادنا عبادةٌ. والعبادة لا بدَّ أن تكون خالصةً لوجه الله، وبما شرع من آداب وأحكام، ومن أجل تحقيق هذين الشرطين لابد للعلماء والدعاة من اتباع هدي رسول الله ﷺ.

- اتباع هديه ﷺ في تعليم أصحابه وتربيتهم.

- اتباع هديه ﷺ مع المنافقين، فهو ﷺ لم يدخل معركةً مكشوفةً معهم، ومن جهة أخرىٰ لم يمكّنهم من اختراق أية طبقة من طبقات الصحابة رضوان الله عليهم.

- اتباع هديه ﷺ في جميع مناحي حياتنا الفردية والجماعية، فإنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ومما صلح به أولها الوضوح التام في مسائل المنهج والاعتقاد، فهي لم تكن عنده ﷺ قابلة للمساومة. فعندما قيل له: اجعل لأبي سفيان شيئًا، قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. مع أن أبا سفيان كان قد أسلم، ومن ناحية أخرىٰ

فهو زعيم قريش الذي لا يُنافس، ومع ذلك فهو لا يستحق أكثر من هذا، والموازين في اختيار الرجال إسلامية وليست جاهليةً. كما كان ﷺ يسترضي المؤلّفة قلوبهم بالمال، وليس بالمناصب والولايات.

فليعتبر بهذا الهدي النبوي الذين يختارون رجالاً لقيادة العمل الدعوي، لأنهم وجهاء!! ولأن قيادتهم ترفع من مكانة الجماعة في أعين الحكومات والأحزاب السياسية.

وليعتبر بهذا الهدي النبوي الذين حوّلوا العمل الإسلاميّ إلىٰ صراع مع أهل الباطل حول عدد الوزارات التي تُعطىٰ لهم، ثم يجلس الوزير سجين مكتبه، ويكتفي بلقب (معالي الوزير)، أما غير هذا اللقب فيجد نفسه عاجزًا داخل وزارته فضلاً عن خارجها.

وليعتبر بهذا الذين يخوضون معارك داخل المجالس الشعبية من أجل مادة من مواد الدستور، فماذا ينفع الدستور كله إذا كان النظام علمانيًّا؟!

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [سورة القلم:٨-٩].

قال ابن جرير الطبري في تفسير هاتين الآيتين: وأولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال.

(ودّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلىٰ الركون إلىٰ آلهتهم، فيلينون في عبادتك إلهك).

وإذا كان الله جل وعلا لم يرض لنبيه أن يلين للمشركين، ويتنازل عن بعض دينه مع استعدادهم للتنازل عن بعض عقائدهم وأعرافهم، فماذا نقول اليوم عن الذين يلينون مع العلمانيين، ويقدّمون التنازل تلو التنازل لهم، ويكتبون المقالات في مدح بعض مواقفهم،

والعلمانيون يقابلون هذا النّفاق بالصدّ والإعراض.

ليت هؤلاء يعلمون بأن الدين ليس سلعةً قابلةً للعرض، وأنه لا يجوز التنازل عن شيء منه.

اللهم ردّنا إليك مردًّا جميلاً، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه. وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

مقدمة **٤**
الفصل الأول: **لمحـات عن النّفاق** **١٢**
تعريف النّفاق ١٢
متى بدأ النّفاق؟ ١٧
أنـواع النّفـاق ٢٢
النّفاق الاعتقادي: ٢٢
النّفاق العملي: ٢٥
الحدّ الفاصل بين النّفاقين ٣٣
المثال الأول: الرياء: ٣٤
المثال الثاني: آية المنافق: ٣٩
الفصل الثاني: **صفـات المنافقـين** **٤٢**
أمارات النّفاق: ٥٧
الفصل الثالث: **كيف نحصّنُ الصفَّ الإسلاميّ من المنافقين؟** **٥٨**
تمهيـــد: ٥٨
المثال الأول: الطليعة الإسلامية ٦١
المثال الثاني: عبد الناصر ومصائب ثورة يوليو ٦٩
المثال الثالث: جويفل والانشقاق السوري عام ١٩٥٤م ٩٥
المثال الرابع: سيد قطب وتنظيم ١٩٦٥م ١٠٧
المثال الخامس: تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ ١١٤
المثال السادس: أحداث نيويورك ١٢١
الفصـل الرابـع: **الإسلاميون وأجهزة الأمن** **١٣٠**

الفصل الخامس: الصفّ الذي لم يُخترق ١٣٩
تعريف الصحابي: ١٤١
عدالة الصحابة: ١٤٣
محاولات الاختراق: ١٤٥
طبقات الصحابة: ١٤٧
طبقات الصحابة في القرآن والسنة ١٥٢
القرآن الكريم: ١٥٢
السُّنة النبوية: ١٥٥
الفصل السادس: فوائـــــد ١٥٩
الفائدة الأولى: طبقات الصحابة لا تُخترَق: ١٥٩
الفائدة الثانية: سابقون في الفضل كلّه: ١٦٩
الفائدة الثالثة: لكلٍّ دوره: ١٧٣
الفائدة الرابعة: الحذر: ١٧٦
الفائدة الخامسة: منهج مناسب لكل عصر: ١٧٨
الفائدة السادسة: الدعاة معروفون: ١٨٢
نتائج البحث ١٩٠
فهرس الموضوعات ١٩٧